USEK
Holy Spirit University of Kaslik Press

Revue juridique de l'USEK
USEK Law Journal
Nº 24 | 2024

(OA) Open Access

eISSN 2664-8156

Dossier 2

ملفّ خاصّ بالعدد

احتفالاً بمئويّة كتاب "النَبِيّ" لجُبرَان خليل جُبران

نظّمت

كليَّة الحقوق والعُلُوم السياسيّة بالاشتراك مع قسم الفلسفة في كليّة الآداب والعُلوم في جامعة الرّوح القُدُس الكسليك

حَلَقَةً حِوَارِيّة

بعنوان

"القَوَانــين والـشَرَائِـع لَدَى جُـبرَان"

يوم الثلاثاء ٢١ تشرين الثّاني ٢٠٢٣

نُظِّمَت هذه الاحتفاليّة بحُضُور ومُشاركة "لجنة جُبران الوطنيّة"

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

Abstract

The School of Law and Political Sciences, in collaboration with the Department of Philosophy at the Faculty of Arts and Sciences at the Holy Spirit University-Kaslik, and in the presence of the Gibran National Committee, convened this discussion panel entitled “Gibran's Laws and Canons” to honor and celebrate the centennial of the book “The Prophet” by Gibran Khalil Gibran.
The discussion was chaired and moderated by poet Habib Younis.
The discussion began with poet Henri Zgheib, who read the chapters “Crimes and Punishment” and “Laws” in his new translation of The Prophet.
Then there was a philosophical and theological intervention by Professor Father Georges Hobeika, who discussed Gibran's laws and codes from the perspectives of philosophy and theology, followed by Judge Randa Kfoury, who discussed the laws and codes from the judge's point of view, Professor Desiree Al-Qazi, who analyzed them from the perspectives of clinical psychology and psychoanalysis, Professor Mireille Issa who focused on the perspective of comparative literature, Dr. Nadine Abbas whose discussion was from the perspective of comparative philosophy, Dr. Karine Nasr Demerjian from the perspective of philosophy of law, and finally President Gaby Chahine who discussed Gibran's laws and canons from the perspective of legal science.

ملخّص

دعت كليّة الحقوق والعلوم السياسية بالإشتراك مع قسم الفلسفة في كليّة الأداب والعلوم في جامعة الروح القدس–الكسليك وبحضور ومشاركة "لجنة جبران الوطنية"، إلى إنعقاد هذه الحلقة الحوارية بعنوان "القوانين والشرائع لدى جبران"، إحتفالًا بمئوية كتاب "النّبيّ" لجبران خليل جبران. ترأس وأدار الحوار الإعلامي الشاعر حبيب يونس.

استهلت الحلقة الحوارية مع الشاعر هنري زغيب الذي قرأ فصلي "الجرائم والعقاب" و"القوانين" في ترجمته الجديدة لكتاب "النّبيّ". ثم كانت مداخلة فلسفية لاهوتية للأب البروفسور جورج حبيقة الذي ناقش القوانين والشرائع لدى جبران من منظوري الفلسفة واللاهوت، تليها مداخلة القاضية رندة كفوري التي ناقشت القوانين والشرائع من وجهة نظر القاضي، البروفسورة ديزيري القزي التي ناقشت من منظوري علم النفس العيادي والتحليل النفسي، البروفسورة ميراي عيسى التي ناقشت من جهة الادب المقارن، الدكتورة نادين عباس التي ناقشت من منظور الفلسفة المقارنة، الدكتورة كارين نصر دميرجيان التي ناقشت الموضوع من منظور فلسفة القانون وأخيرًا مع القاضي كابي شاهين الذي حاور القوانين والشرائع لدن جبران من جهة علم القانون.

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

البرنامج

كلمة الافتتاح: **الأب العميد الدكتور وسَام خُوري.**

مُدير الحِوَار: **الإعلامي الشاعر الأستاذ حبيب يونس.**

المُشَارِكُون:

الشاعر هنري زغيب

قرأ فَصْلَيْ " القوانين" و"الجرائم والعقاب" في ترجمة "النبي" الجديدة التي صاغهَا

وحاوِرُهُ

- **الأب البرفسور جورج حبيقة**

أُستَاذ علم الفلسفة والإنسانيّات – الرئيس الفخريّ لجامعة الرّوح القُدُس الكسليك والعميد السّابق لكليّة الفلسفة والإنسانيّات فيها.

من منظورَيْ الفلسفة واللاهوت

- **القاضية الرئيسة رندى كفوري**

رئيسة الغرفة الجزائيّة في محكمة التمييز اللبنانيّة بالإنتداب، أُستَاذة سابقة في كليّة الحقوق في جامعة الرّوح القُدُس الكسليك.

من وجهة نظر القاضي

- **البرفسورة ديزيري القزّي**

أستاذة باحثة في علم النفس في الجامعة اللبنانيّة.

في علم النفس العياديّ والتّحليل النفسي

- **البرفسورة ميراي عيسى**

باحثة في اللغة اللاتينيّة وآداب القرون الوُسطى في جامعة الرّوح القُدُس الكسليك.

في منهج الأدب المُقَارَن

- **الدكتورة نادين عبّاس**

أستاذة الفلسفة العربيّة والإسلاميّة في جامعة القديس يوسف بيروت.

من زاوية الفلسفة المُقَارَنَة

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

- **الدكتورة كارين نصر**

أُستَاذَة الفلسفة في جامعة الرّوح القُدُس الكسليك.

في فلسفة القانون

- **القاضي البرفسور كابي شاهين**

أُستَاذ القانون التجاري في جامعة الرّوح القدس الكسليك.

في علم القانون وحوْلَهُ

- **الدكتور فادي رحمة**

رئيس لجنة جبران الوطنيّة

الجريمة، والعقاب، والقانون في فكر جبران

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

المداخلات المنشورة

كلمة إفتتاحية – الأب وسام خوري

في الجريمة والعقاب – جبران خليل جبران (تعريب هنري زغيب)

في القوانين – جبران خليل جبران (تعريب هنري زغيب)

مفهومُ الأخلاقِ والقوانينِ في طبيعةِ الإنسان التناقضيّةِ في "نبيّ" جبران – الأب جورج حبيقة

من وجهة نظر القاضي – رندى كفوري

جبران في فصلين من كتاب "النبي" على ضوء التحليل النفسي – ديزيري قزي

القانون والرحمة عند جبران خليل جبران – ميراي عيسى

دراسة فلسفية حول نصي "الجريمة والعقاب" و"القوانين" في النبي لجبران – كارين نصر

الشريعة والقانون في الأدب الجبرانيّ – قراءة في علم القانون وَحَوْلَهُ – كابي شاهين

الجريمة، والعقاب، والقانون في فكر جبران، من العدالة الصارمة إلى إحقاق الحق والإنصاف، ثمرة التعاطف – فادي رحمة

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

كلمة إفتتاحية

الأب وسَام خُوري، *دكتور في القانون، عميد كليّة الحقوق والعلوم السياسية في جامعة الروح القدس الكسليك*

قَدْ يَخَالُ لِمَن يقرأُ الدّعوةَ إلى احْتِفَالِيَّةِ اليَوم أنَّ جُبرَانَ يُحتَفَى بهِ في واحدةٍ من كليّات الآداب التي يحتَضِنُهَا صرحٌ أكاديميٌ علمانيّ.

وقد يعتَقِدُ الباحثُ أنَّ لا مَحَلَّ لِجُبران أو لِفِكرِ جُبرَان في هذا البَيتِ اللُّبنَانِيّ المَارونيّ المُكَرَّسِ للفكرِ بكلّ مُشتَمَلاته، أو يظنُّ القَارِئُ أنّه يَصعَبُ على مدرسَة الحُقوقِ أنْ تستضيفَ كتابَ النبيّ المُحَلّقَ ما بين المَعنى الرُّوحَانيّ والمَبنَى القائم على تهذيب اللّغةِ وتَشذِيبِ مُفرَدَاتِهَا وأَسَالِيبهَا، ذَاكَ المعنى الَّذي يُحلّقُ خَارجَ الجَسَدِ في فُسحَةٍ منْ وحيٍ نُورَانيّ ما هوَ إلاّ قَبَسٌ من نورِ الله.

وها نحنُ اليومَ، في جامعة الرّوح القُدُس، وفي مدرسة الحقوُقِ تحديدًا، نجتمعُ لنتحدَّث في فكر جُبران، وفي فلسفةِ نَبيّهِ الذي يُعَيّدُ قَرْنًا من سنواتٍ عَرَفَتهُ فيها كُلُّ لُغَاتِ الأرضِ مُتَرْجَمًا وَقَرَأَهُ في أيّامِها ولَيَالِيهَا نساءٌ ورجالٌ، فبكَى مَن بَكَى مِنهُم واسْتَغرَقَ الكَثيرُونَ في أحْلامٍ فكريَّةٍ حَادّة، هي بين اليَقظةِ والمَنَام، بينَ الفِكرِ والوَحِيْ، وبينَ التَنويرِ والتَساؤُلْ.

تصالَحَ جُبرَانُ مع إيمانِ آبَائِهِ أَهلُ جَزيرةِ مَولِدِهِ، أبناءُ أُمِّهِ الدّهريّة الذين ما بَرِحُوا يُسافِرُوْنَ حامليْنَ في خَلَجَات قلوبِهِم النقيّة نَسَمَات ريحِ الصّباح فوق قنّوبين وشيئًا من عَبَقِ وَزَّانِ نَيْسَان في جَبَلِ لُبنَانَ وبَعضَ عُطرِ يَانَسُونِ الشَام يُضَمّخُونَ به خُصُلاتِ العِنَبِ السمراء المتدليّة من دوالٍ مُعَلَّقَات في كرومِ زحلَةَ وبَعلَبَك... وفي جُعبَتِهِم أيضًا ترانيمٌ مريميّة مَشرِقيّة وتأوّهاتٌ إزَاءَ المصلوب الرّافع خطايَا الشعوبِ كلّها.

تَصَالَح جبرانُ مع الذّاتِ السَّاميةِ عندما حلّق في سماوات المحبّة التي لا تطلب لنفسها شيئًا ولا تُعطي إلاّ نَفسَها كالبَاسِطَ يديهِ على العُود الذي أمضى جبرانُ عُمرَهُ يُفَتّشُ عنهُ...

تاهَ جُبرَانُ بعيدًا ولكنّهُ عَادَ، عَادَ في رَسْمِهِ المَصلُوبَ مُعَلّقًا على أجسَامٍ هيَ خَطايَا البَشر،

عادَ حينَ رأَى في ابْنِ الإنسانِ أعظَمَ إنسانٍ وَلَدَتهُ امرأةٌ، وهو البشريُّ التّام،

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

عادَ حينَ هامَ في رُوحَانيّات الفادي وتعرّق مَعَهُ أمَامَ جهلِ الإنسانِ وحماقةِ الأفكار وبُطلان كلّ شيء،

فرَسَمَ لأبناءِ أورفُليسَ نبيًا استعادَ أقوالَ المصلوبِ ومَا قَالَ بِسِوَاهَا، وَلَوْ تأَرجَحَتْ رِيشَتُهُ حِينًا بينَ وادٍ وآخَرَ سَحيقٍ من تَساؤلات البَشَرِ وَتِيْهِ البَشَر،

ونبيُّ جُبرَانَ تحدَّثَ أيضًا في الحقّ والشريعَةِ والقانُون!

وهذا ما يجمعُنَا اليومَ،

ويُسِرُّني أنْ أستقبل في مَا بَينَنَا كوكَبةً من نساءٍ ورِجَال امتَطُوا الفِكرَ والمَعرِفَة، كُلٌ في مجالِ بحثِهِ، وهَا بعُصَارَةِ أفكارِهِم تتدَفَّقُ هَا هُنا كلمَاتٍ طَيّبَات تتوق النّفسُ لِسَمَاعِهَا، الأب البرفسور جورج حبيقة والقاضية الرئيسة رندا كفوري والبرفسورة ديزيري قزّي والبرفسورة ميراي عيسى والدكتورة نادين عبّاس والدكتورة كارين نصر والدكتور شاهين.

يَسُرُّني أيضًا أن أُرَحِّبَ فيما بيننَا بِلَجنَة جبران الوطنيّة برئاسة د. فادي رحمة وهي التي تسعى دائمًا إلى أنْ يبقَى فكرُ جُبرَان حيًا بينَ أهلِهِ وبني قومِه وهي التي قدّمت، بالتعاوُنِ مع مكتب المحامي النقيب ميشال خطّار، الذي يُديرُهُ اليَوْمَ نجلُهُ الأستاذ نجيب الذي حلّ ضيفًا علينا في هذا المحفل، جائزتيْن نقديّتيْن لأفضلِ طالِبَيْن يُعِدَّان بحثَيْن عن " الفكر القانونيّ لدى جُبرَان"،

أهلاً وسهلاً بالحضور من أساتذة وأهل فكر وطلاّب.

والكلمة أتركها للأستاذ الإعلاميّ حبيب يونس صاحب الحضور الثقافيّ المميّز وللشاعر المُبدِع هنري زغيب يقرأ لَنَا من صياغته الجديدة الصّادرة في زمن مئويّة جبران التي نحتفل بها.

أهلاً وسَهلاً بكم!

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

في الجريمة والعقاب

النبيّ* – *جبران خليل جبران، ترجمة هنري زغيب (منشورات مركز التراث اللبناني – الجامعة اللبنانيّة الأميركيّة ٢٠٢٣)

ثم دنا منه أَحدُ قُضاة المدينة

وقال له:

"كلِّمنا في الجريمة والعقاب"

فأَجاب:

حين تتيه روحُكم في الريح

وتَخْلُون وحدَكم دون رقيب

ترتكبون خطأً بحق الآخرين وتاليًا بحقِّكم

وتَبْعًا لخطَإِكم

عليكم أَن تقرعوا باب الأَصفياء

وتنتظروا إِلى حينٍ مُهمَلِين

***

ذاتُكُم الإِلهية هي كالبحر

تبقى أَبدًا نقيةً من الدنَس

هي كالأَثير لا يَحمل إِلَّا المجنَّحين

وهي كالشمس

لا تَدخل ثقوب الخُلْد

ولا تَبحث عن جحر الأَفعى

لكنَّ ذاتكم الإِلهية ليست وحدها في كيانكم

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

جَمٌّ فيكُم أَصبح إِنسانًا

لكنَّ جمًّا آخر فيكم لم يمُسِ إِنسانًا بَعد

بل هو مسْخٌ مشوَّه

يمشي غافيًا في الضباب

باحثًا عن يقظته

لذا سأَحكي الآن عن الإِنسان فيكم

لأَنه هو الذي يعرف الجريمة وعقوبتَها

لا ذاتُكم الإِلهية ولا المسخُ الذي في الضباب

***

غالبًا ما سمعتكُم تتحدَّثون عمَّن اقترفَ خطأً

كأَنه ليس منكم

بل غريبٌ عنكم ودخيلٌ على عالمكم

وإِني أَقول لكم أَنْ

كما الأَكثرُ فيكم قُدْسًا وعدلًا

لا يمكن أَن يرتقي أَعلى مما في كلٍّ منكم

هكذا الشرّير والضعيف

لا يمكن أَن ينحدر دون أَسفلِ ما فيكم

وكما الورقةُ الخضراءُ لا تذوي صفراءَ

إِلَّا بمعرفةٍ صامتةٍ من كامل الشجرة

هكذا الفاسقُ لا يمكن أَن يرتكب الخطأَ

دون إِرادةٍ صامتة في ذاتكم الجَماعية

***

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

تَسيرون في موكبٍ معًا

صوب ذاتكم الإلهية

أَنتم لها الطريقُ وأَنتم سالكُوها

وحين يتعثَّر أَحدُكُم ويسقُط

يكون سقَط إنقاذًا مَن خلفَه

منبِّهًا إياهم عن الحجَر الداهم

بلى

وهو يسقُط أَيضًا ضحيةَ مَن أَمامه

خَطَوا بخُطًى مُسرعة وثابتة

ولم يُزيحوا من مكانه حجَرَ العَثرة

بل أَقول أَكثر

ولو بدا كلامي ضاغطًا على قلوبكم:

القتيلُ ليس براءً مِن مقتله

ومَن يُسرَقُ ليس خارجَ اللوم أَنه انْسَرَق

والعادلُ ليس بريئًا من أَفعال الجائر

والنظيفُ الكفِّ ليس نقيًّا من فعل الجاني

بلى:

المذْنبُ أَحيانًا ضحيةُ المُصاب

والمحكوم غالبًا يحمل وزْر البريْء والمظلوم

لا يمكنكم فصل العادل عن الظالم

ولا الصالح عن الشرير

لأَنهما يقفان معًا حاسرَيْن في وجه الشمس

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

كما الخيطُ الأَبيض والخيط الأَسْود يُنْسَجان معًا

فإذا انقطَع الخيطُ الأَسْوَد

تفحَّصَ الحائكُ الثوبَ كلَّه وَتَفَقَّد النَوْل

***

وإِنْ أَحدٌ منكم اتَّهم زوجةً خائنة

فلْيَزِنْ في اتهامه قلبَ زوجِها ومقاييسَ روحه

ومَن يَلعن المذنب فلْيَرَ روحَ الضحية

وإِن شاء أَحدٌ منكم

باسم العدل

أَن يعاقِبَ بغرزِهِ فأْسَه في شجرة الشر

فلْيتفقَّدْ جذورَها

ليرى أَنَّ جذورَ الخير والشر

وجذورَ الخصوبة والعقم

متلفِّفَةٌ معًا في قلب الأَرض الصامت

***

وأَنتم

يا القضاةُ المضْمِرون أَن تعْدِلوا

أَيَّ حكْمٍ

تُعلنون على البريْء جسَدًا واللص روحًا؟

وأَيُّ عقوبةٍ

تطلقون على مَن يقتل الجسد وهو روحًا قتيل؟

وكيف تحكُمون على مذنبٍ بفعلته وظالمٍ

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

فيما هو أَيضًا مظلوم ومُهان؟

وكيف تعاقبون مَن نَدَمُهُم أَكبرُ من فعْلتهم؟

أَلَيْس في النَدَم

عدالةُ قانونٍ تستندون إِليه كي تحكُموا؟

مع ذلك

لا يمكنكُم فرْضُ النَدَم على البريْء

ولا نَزْعُهُ من قلب المذنب

لأَنه سينادي في الليل كي يَتَنَبَّهَ الناس ويتَّعظوا

***

وأَنتم

يا الراغبون في فهْم العدالة

كيف تفهمونها

إِن لم تُعاينوا جميع الأَفعال في وضح النُور؟

عندئذٍ تَفهمون

أَنَّ الناجي والساقط

شخصٌ واحدٌ واقفٌ عند الغَسَق

بين ليلِ ذاتِهِ المسْخ ونهارِ ذاتِهِ الإِلهية

وأَنَّ حجرَ الزاوية في الهيكل

ليس أَعلى من أَسفلِ حجرٍ في أَساس البناء

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

في القوانين

النبيّ – جبران خليل جبران، ترجمة هنري زغيب (منشورات مركز التراث اللبناني – الجامعة اللبنانيّة الأميركيّة ٢٠٢٣)

ثم سأَل محامٍ:

"... وماذا عن قوانيننا يا معلِّم"؟

فأَجاب:

تغتَبطون بِسَنِّ القوانين

وتغتبطون أَكثر بكَسْرها

كما أَطفالٌ على الشاطئ

يتأَنَّون في بناء أَبراجٍ من رمل

ثم يهدِمونها وهم يضحكون

إِنما

فيما تَبْنون أَبراجكُم الرملية

يحمل الموجُ مزيدًا من الرمل إِلى الشاطئ

وإِذ تهدمونها يَضحك معكم البحر

فهو دومًا يضحك للبراءَة

***

ولكنْ...

ماذا عمَّن ليست الحياةُ لهم بحرًا

ولا قوانينُ البشَر أَبراجًا رملية

بل حياتُهم صخرةٌ

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

والقانونُ إزميلٌ به ينحتون أَشباهَهم فيها؟

ماذا عن المُقْعَد الذي يَكره الراقصين؟

وماذا عن الثَور الذي يحب نيرَه

ويرى الظبي والغزال تائهَين شاردَين في الغابة؟

وماذا عن الحيَّة العتيقة التي

ما عادت تستطيع تغيير جلْدها

فتُسَمِّي شبيهاتها عارياتٍ ولا حياء؟

ماذا عمَّن يأْتي باكرًا إلى وليمة عُرس

ويغادر متخَمًا متعَبًا

مدَّعيًا أَنَّ

كلَّ وليمةٍ انتهاكٌ

وكلَّ مُولِمٍ منتهِكُ قوانين؟

***

ماذا أَقول عن هؤُلاءِ

سوى أَنْ هُم كذلك

يقفون في النور

إنما

مديرين ظهورَهم للشمس

ولا يرون إلَّا ظِلالَهم

فظِلالُهم قوانينُهم

وليست الشمس لهم سوى مصدرِ ظلال؟

وما الاعترافُ بالقوانين

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

سوى الانحناءِ ورسم ظلالِها على الأَرض؟

أَنتم الذين يمشون مواجهين الشمس

أَيُّ ظلالٍ على الأَرض تُعيقُكم؟

وأَنتم المسافرون في الريح

أَيُّ دَوَّارةٍ لها تُسيِّرُ وُجهَتَكم؟

أَيُّ شَرْع بَشَريّ يَدينكم

إِن لم تكسروا النير عند أَيّ باب سجين؟

أَيَّ قوانين تخافون

إِن رقصتم ولم تترنَّحوا بأَيّ قيودٍ حديديةٍ بشرية؟

ومن ذا يَحكُم عليكم

إِذا خلعتُم ثيابكم ولم تتركوها في درب أَحد؟

***

يا أَهل أُورفليس:

يمكنكم أَن تَكُمُّوا الطبلةَ

وتُرخوا أَوتارَ القيثارة

ولكنْ...

مَن يُمكنُهُ أَن يَمْنَعَ القُبَّرة من الغناء؟

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

مفهومُ الأخلاقِ والقوانينِ في طبيعةِ الإنسان التناقضيّةِ في "نبيّ" جبران

الأب جورج حبيقة، *بروفسور، النائبِ العامّ في الرَّهبانيّةِ اللبنانيّة المارونيّة والرئيسِ الفخريّ لجامعة الروح القدس – الكسليك*[1]

عندما يقول جبران خليل جبران: *"حين تتيهُ روحُكم في الريح"*، تُدركون فورًا أنّه المتمرّدُ الثائرُ المنتفضُ أبدًا على كلِّ شيء. هو "نيتشه"، هو "الزرادشتيّة"، هو "الحلوليّة" (الكلوهيّة)، هو عُصارةٌ للفكرِ الإنسانيّ الّذي يبحثُ في القلقِ والإضطرابِ المنفعلِ عن معنى الوجود. *"حين تتيهُ روحُكم في الريح وتخلون وحدَكم من دونِ رقيب، ترتكبون خطًا بحقّ الآخرين وتاليًا بحقّكم"*.

في هذا المقطع، لم يُردِ الصديقُ العزيز والمترجمُ الثقيفُ هنري زغيب أن يبقى لصيقًا بالنصّ الإنكليزيّ ويقول *"وأنتم وحدَكم من دون رقيب" "alone and unguarded"* بل تجاوزَه في تفسيرٍ خلفيٍّ وباطنيٍّ للنصّ الجبرانّي، وأدخل فعلَ "خلا" تدليلًا على القرار الحرّ والمتمرّد بالإنفراد وَٱعتزال المجتمع، ليركبَ هبّاتِ الريحِ ومطباتِها المتفلّتةِ من أيّ ضوابطَ ومساراتِ تحكّمٍ مُسبقة. وهنا تُطرحُ بقوة مسألةُ سلوكيّاتِ الإنسان عندما يكونُ خارجَ نظر الآخرين وسَمْعِهم ومراقبتهم. هل المنظومةُ الأخلاقيّةُ تبقى فاعلةً ورادعةً لأيّ مَسٍّ بالقيم الأخلاقيّة، أم ينزلقُ المرءُ إلى ٱرتكاب جميعِ الممنوعات والمحرَّمات وَفق غرائزِه وشهواته، بعيدًا من أيّ محاسبةٍ أو مجازاة؟

هذه المعضلةُ الفلسفيّةُ الشائكة، عالجها أفلاطون في كتابِه الثاني في مؤلَّفه عن الجمهوريّة Le livre II de la République على لسان غلوكون Glaucon، أحدِ مُقارعي سقراط في الحواراتِ الأفلاطونيّة، في قصّةِ خاتم جيجيس Anneau de Gygès. وهذه قصةُ Gygès الشهيرة كما رواها غلوكون: كانGygès راعيًا في مملكة "ليديا" الّتي يقع قسمٌ كبيرٌ منها في تركيا الحديثةِ والبوسفور والبحرِ الأسود وبحر إيجه. كان ملكُ ليديا يدعو بين الفينةِ والفينة رعاةَ الغنمِ إلى بَلاطه ليناقِشَ معهم أوضاعَهم ومشاكلَهم اليوميّة. حدث يوما أنَّ جيجيس وقع صدفةً على جثّةٍ في إصبعها خاتَمٌ مثيرٌ للدهشة. أُعجب جيجيس بالخاتم، وأخذَه لنفسه من إصبع الجثّة ولَبِسَهُ من غير أنْ يعلمَ ما يفعلُه هذا الخاتَمُ بحامله. وإذ كان يُجالسُ المجتمِعينَ لدى الملك، قام بإدارة الخاتمِ

[1] . الكلمةُ كما ألقاها الأب البرفسور جورج حبيقة في طابَعِها الشفهيّ.

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

في يده نحو أسفل، فرأى زملاءَه الرّعاةَ والملكَ يتكلّمون عنه بصيغةِ الغائب وهو بينهم. فتفاجأ من طاقاتِ هذا الخاتَم السحريّة، وفَهِم أنّه يُعطي حاملَه القدرةَ على أن يتوارى عن الأنظار.

عاد وأدار خاتمَه نحو أعلى، فظهرَ مجدّدًا للمجتمعين الّذين راحوا يخاطبونه بصيغةِ الحاضر. ولمّا تيقَّنَ من مفاعيلِ هذا الخاتَم، تفلّتَ من ضوابطِ المجتمعِ وقوانينِه، وٱرتكب أمورًا لا يُمكن لإنسان تصوّرُها، لأنّه كان راسخَ القناعة بعدم إمكانيّةِ ملاحقتِه قانونيًّا ومحاسبتِه لتعذُّرِ رؤيتِه وتحديدِ هُوّيّتِه. يَستخلصُ هنا غلوكون، مما سبق، الأمرَ التالي: إذا أعطينا هذا الخاتَمَ في الوقتِ ذاتِه لشخصٍ صاحبِ أخلاقٍ حميدة وٱنضباطٍ أدبيّ وقانونيّ، وَلآخرَ مجرمٍ، قاتلٍ وفاسق، لَلاحظنا بِأُمِّ العين أنَّ الإثنين سيتصرفانِ بالطريقة عينِها.

يقولُ هنا أفلاطون، على لسان سقراط الحكيمِ الناطقِ الرسميّ باسمه في أغلبيّةِ محاوراتِه الفلسفيّة، إنّ التعلّقَ بهذا العالم الّذي إن هو إلا ظِلالٌ خادعةٌ لعالَمِ المُثل، يقودُ حتما إلى سلوكيّاتٍ منحرفة ولاأخلاقيّة. وهذا ما حصل مع جيجيس، الّذي كان يعيشُ بسلام على إيقاع حوافرِ قطيعِه في السهول والوديان، ومن دون طموحاتٍ جامحة، وقع في فخّ السّلطةِ والنّفوذ، فوظَّفَ الخاتَمَ السحريَّ ليغرّرَ بالملكة ويقتلَ الملكَ، بُغيةَ التربُّعِ على عرشِ الحكمِ في عالمٍ زائلٍ ولا قيمةَ وجوديّةَ له.

إذًا العبرةُ من قصّة *"خاتَم جيجيس" "L'anneau de Gygès"* في نظر غلوكون، الّتي ينقضُها بقوة سيّدُ الحكماء سقراط، هي أنّهُ من غيرِ رقيبٍ أو حسيبٍ، يتحوّلُ الإنسان، كلُّ إنسانٍ، إلى خارجٍ عن القانون والمنظومةِ الأخلاقيّة، ومرتكبٍ لجميعِ المعاصي. لا أحدَ ينصاعُ إلى منظومةِ القيم والأخلاق عن قناعةٍ داخليّة، بل خوفًا من العقاب والقصاص. ويتابعُ غلوكون قائلًا: إنّ القوانينَ والضوابطَ سنَّها ووضعها الضُّعفاء، لأنَّ القويَّ إنّما هو فوق النواميس والأعراف. قوّتُه وعظمتُه هما الإطارُ القانونيُّ الوحيدُ له.

في السِّياق ذاتِه، يُميطُ جبرانُ اللِّثامَ عن طبيعةِ الإنسان التناقضيّة. فهو يتكلّمُ في آن معا عن الذّاتِ الإلٰهيّة وصورتِها النقيضة، المسخِ القابع بمحاذاتها في قلبِ الإنسان، مُظهِرًا بذلك مبدأَ التعارُضِ في المكوّنات الحميمة لجوهرِ الطبيعة البشرية. إنّ هذا الطرحَ الجبرانيّ يتقاطعُ كلّيًّا مع العديد من الفلسفات كما مع اللاّهوت المسيحيّ، حيث يبانُ بشكلٍ لا لُبسَ فيه هذا التمزُّقُ الأدبيُّ الداخليّ الّذي يعيشُه الإنسان بين *"الذّاتِ الإلٰهيّة"* god–self الّتي تُشِعُّ خيرًا ومحبّة وعطاء وفرحا، والمسخِ أي الـ"pigmy"، (وهي كلمةٌ إنكليزية من أصل يونانيّ πυγμαῖος pygmaios وتعني

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

القزم، المسخ)، الّذي يقاومُها ويعاكسُها ويسعى بكلِّ حيلِه وخدَعِه إلى الفتكِ بها وإزهاقها. عن هذا التناقض الداخليّ، سبق لمار بولس وعبّر عنه بألمٍ شديد. في رسالته إلى أهل روما، يقول ما حرفيَّتُه: *"لستُ أعرِفُ ما أعملُ، فما أريدُ، إيّاهُ لا أفعل، بل ما أكرهُ، إيّاهُ أصنع"* (رومانيين ٧، ١٥). وفي رسالته إلى الغلاطيّين، يُشدِّدُ مار بولس على الصّراع المحتدمِ في داخلنا بين منطقِ الجسدِ ومنطقِ الرّوح، قائلا: *"لأنَّ الجسدَ يشتهي ما يُضادُّ الرّوح، والرّوحَ ما يُضادُّ الجسد. فكلٌّ منهما يُضادُّ الآخرَ، حتّى إنّكم لا تعملونَ ما تريدونَ"* (غلاطيين ٥، ١٧).

ننتقل الآنَ إلى موضوع آخر، مكمل ومغاير، ألا وهو الصيرورة الإنسانيّة. هل نولدُ بشرًا، أم نصيرُ بشرًا؟ في الترجمة الجديدة الّتي وضعها الشاعرُ الكبير والأديبُ الأريبُ هنري زغيب، نقرأُ ما يلي: *"جَمٌّ فيكم أصبحَ إنسانًا، لكنَّ جمًّا آخرَ فيكم لم يُمسِ إنسانًا بعدُ"*. إنّ المقارنةَ مع النصّ الإنكليزي تُظهرُ بَوْنًا بين مطاوي المعاني الوجوديّة في النصّ الأصليّ والمضامين الّتي تحملُها الترجمةُ العربيّة:

"Much in you is still man and much in you is not yet man."

إنَّ الترجمةَ الفلسفيّة والدقيقة لـ Much in you is still man ليست *"جَمٌّ فيكم أصبحَ إنسانًا"*، بل *"جَمٌّ فيكم لا يزالُ إنسانًا"*، أي العديدُ بينكم بذلَ جهودا مضنيةً ليصيرَ إنسانًا، ولا يزالُ يحافظُ في ذاته على ما تحقّق فيه من مقوّمات الجوهر البشريّ. والقسمُ الثاني من الجملة: *" and much in you is not yet man"* لا يمكن أن نترجمَها بـ *"لكنَّ جَمًّا آخرَ فيكم لم يُمسِ إنسانًا بعد"*. فالترجمةُ الأكثرُ ٱلتصاقًا بالنصّ الأصليّ هي التالية: *"لكنَّ جَمًّا آخرَ فيكم ليسَ بعدُ إنسانا"*. في فكرِ جبران هذا ترجيعٌ مباشِرٌ للمنظومة الإنسانويّة لمفكّرِ روتردام الشهير إرسموس (١٤٦٦ – ١٥٣٦) Erasmus الّذي بيَّن دورَ التربية الأساسيّ في صياغة الكائنِ البشريّ وتحقيقِ جوهرِه كما حدّده في كتابه De Pueris "في الطفل"، حيث يقول: *"الإنسان لا يولدُ إنسانًا، بل يصيرُ إنسانا" "Man is not born, but made man."* كاتبُ "النبيّ" ينضمُّ إلى هذا التّيارِ الفلسفيّ القائل بالصيرورة المستدامة عبر التربيةِ والتعلّمِ والعلمِ والفنونِ والبحثِ وكلِّ أنشطةِ الفكر. فهو يتعارضُ كلّيًّا مع الجوهريّين Essentialists الّذين يقولون بأنَّ الجوهرَ يسبقُ الوجودَ ويُنظّمُه تِبعًا لمهامّه الوجوديّة. فالجوهرُ الإنسانيُّ يسبقُ وجودَ الكائنِ البشريّ ويُعطيه قالَبًا خاصًا يميّزُه عن جميع الكائنات الأخرى. فالجوهرُ ينظِّمُ المادة، كما يحدّدُه بشكل دامغ أرسطو. وَفقَ هذه النظرةِ الفلسفيّة، يولدُ الإنسان إنسانًا مع كامل المكوّنات لجوهره الإنسانيّ، قبل أيّ تعلّمٍ وتثقيف، وحتّى خارجَ أيّ لغة، مع المبادئ الّتي تحرّكُ تدخّلَه في عالم المحسوسات وتتحكّمُ في عَمليّات المشاهدة والتحليل والإستنتاجات. هنا نذكرُ

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

على سبيل المثال قصّةَ "حيّ بن يقظان" لابنِ طفيل في القرنِ الثاني عشر ميلادي. الاسمُ بحدِّ ذاته "حيّ بن يقظان" يعني أنّ الإنسان إنما هو ابنُ يقظةِ فكرِه وضميره. فهو ليس بحاجةٍ إلى المجتمع ليصلَ إلى معرفة العالم والدخول في صلةٍ وجوديّة مع اللهِ خالقه. وحيدًا على جزيرة، وبعيدًا من أيّ لغةٍ من لغّات البشر، وخارجَ أيّ تربيةٍ وتنشئة، كان حي بن يقظان كاملَ الانتماءِ إلى البشريّة بفضل جوهرِه الإنساني وطاقاتِه الفكريّةِ الفطرية. كان إنسانًا بحدِّ ذاته. وتُرجمت هذه القصّةُ الشهيرة إلى الفرنسيّة تحت عنوان معبّر: Abubacer, Le philosophe autodidacte, ou l'Eveillé. تجدرُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ هذه القصّةَ الفلسفيّةَ كانت مصدرَ إيحاءٍ لقصّةِ روبنسون كروزو Robinson Crusoe الشهيرة الّتي كتبها المؤلّفُ الإنكليزيّ دانيال ديفو Daniel Defoe سنة ١٧١٩، وللعديدِ غيرِها. لم يرَ جبرانُ نفسَه متآلفًا مع تيّار الجوهريّين، فانضمَّ إلى الوجوديّين Existentialists الّذين كانوا يُنادون بالوجود السابق للجوهر. فالإنسان لا يولدُ إنسانًا، بل يتجوهرُ إنسانًا في معادلة الزمان والمكان وعبرَ الجهدِ والنضالِ والتربية والترقية الفكريّة الحرّةِ والمتواصلة في المجتمع. وعليه بالتّالي أن يجهدَ بكامل قواه للمحافظةِ على ما تحقّقَ من إنسانيةٍ في ذاته، مخافةَ فقدانِ ما تحقَّقَ والعودةِ إلى الما قبل الإنسانيّة. لذا يقولُ جبران: *"جَمٌّ فيكم لا يزالُ إنسانًا، وجَمٌّ فيكُم ليسَ بعدُ إنسانا"*.

إنَّ هذه الصيرورةَ المستدامةَ يُحرّكُها صراعٌ دهريٌّ بين إلٰهِ الخيرِ وإلٰهِ الشر. لذا المعادلةُ الوجوديّةُ دائمةُ التأرجحِ بين حدَّينِ متناقضين في توازنٍ مُتقلّبٍ وغيرِ مستَقرّ. وهنا يبانُ بشكلٍ جَلِيّ إلى إيّ مدىً كان جبران متأثّرًا بالزرادشتيّة.

بالإضافة إلى الزرادشتيّة، كان جبران شديد التأثّر بالحلوليّة pantheism المنبثقةِ في اللّغّات الأجنبيّة من مفردتين في اللّغة الإغريقيّة Pan أي كلّ وTheos إلٰه، بتعبيرٍ آخر، اللهُ هو كلُّ هذا العالمِ المحسوس. هو ليس بشخصٍ كما نرى ذلك في اليهوديّة، والمسيحيّة والإسلام. إن كلمةَ حلوليّة في اللّغة العربيّة تعني أنَّ اللهَ حلَّ في هذا الوجود ونزَل فيه وأقام فيه وأصبح هذا الوجود. في المصطلحِ العربيّ تناقضٌ كبيرٌ مع المصطلح اليونانيّ pantheos وpantheism. في الـ pantheism لم يكن اللهُ خارجَ الوجود الحسيّ ثمّ حلَّ في عالمنا وتماهى معه. ألله هو العالمُ الحسّيُّ والكونُ بأكمله منذ الأزل وإلى الأبد. هو ليس بشخصٍ، وكلُّ شيءٍ في هذا العالم وكلُّ كائنٍ إنّما هو جزءٌ لا يتجزّأُ من هذا الكلّ. كلُّ شيءٍ وكلُّ كائنٍ هو خليّةٌ حيَّةٌ في هذا الكلِّ الإلٰهيّ. من هنا ضرورةُ تكييفِ اللّفظة العربيّةِ مع المصطلحِ اليونانيّ وتبنّي الكلمةِ التّاليةِ الأكثر أمانةً للمذهبِ الفلسفيّ الّذي يُنادي بهذا الفكر: من الجذر الإغريقيّ pan theos الكلُّ إلٰه، بمقدورنا أن نصوغ

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

المفردة الفلسفيّة التالية: الكُلوهيّة pantheism. من هنا الذّاتُ الإلٰهيةُ تحضنُ غيرَ المذنب والمذنب، الصالحَ والشرير، الجريمةَ والعقابَ والثواب. في وحدةِ الوجودِ هذه، تعتقلُ الكلوهيُّة كلَّ شيءٍ في داخلها، لأنَّ لا وجودَ البتّة خارجَها. كما يقولُ سبينوزا Spinoza في القرن السابعَ عشر، كلُّ عملٍ أو حدثٍ في وحدة هذا الوجودِ إنما هو لازمٌ وغيرُ متعدٍّ toute action dans ce monde est intransitive، إذ لا شيءَ بمقدوره أن يحصلَ خارجَ هذه الذّات الإلٰهيّة، أي الكونِ الحسّيّ بكلّيّتِه. بالنسبة إلى كاتبِ "النبيّ"، تُحيطُ الذّاتُ الجماعيّةُ بالخيرِ والشرّ عَلى حدٍّ سواء في وحدة الوجودِ الكلوهيّ. وكلُّ ما يفعلُه الإنسان من خيرٍ ومحبّةٍ وشرٍّ ولاعدالةٍ يرتدُّ جبرًا عَليه، لأنّنا موحَّدون في الذّات الإلٰهيّة. نستخلصُ ممّا سبق أنّ جبران يُطلقُ ثورةً عنيفةً لا هَوادةَ فيها على جميع القوانين الّتي سنّها وسيسنُّها الإنسان، لأنَّ في هذا الوجود الموحَّدِ في الكلوهيّة يصعبُ التمييزُ بين المجرم والصالح. وتتويجًا لِفكرِ جبران الكلوهيّ، لا قَولَ أبلغ ممّا يقولُه مؤلّفُ "النّبِيّ" في موضوع المحبّة Love:

“When you love, you should not say: “God is in my heart”, but rather “I am in the heart of God”.

ما ترجمتُه: *"عندما تُحبُّ، لا تقل "اللهُ في قلبي"، بل بالحريّ "أنا في قلبِ الله".*

في خلاصة القولِ، إنّ "نبيَّ" جبران خليل جبران إن هو إلّا آنتفاضةٌ فكريّة على مُسلّماتِ الفكرِ المتوارَثِ خارجَ أيّ نقدٍ أو تساؤلٍ أو إعادةِ نظر. فهو يرجعُ إلى تيّارات عديدة في آنتقائيةٍ مُبدعة وهاضمة للخصوصيّات في قالَبٍ أخّاذٍ وجديد. فموضوعُ السلوكيّاتِ الأخلاقيّةِ ودوافعِها الخفيّةِ والظّاهرة، معطوفة إلى مسألة عدالةِ البشر المزيّفةِ والقوانين الوضعيّة الخادعة، ومبدأُ المحاسبةِ والعقابِ المحصَّنِ بالذاتانيّة والزَيْف، جميعُ هذه الِاعتبارات تتداخلُ وتتمازجُ في وحدة الوجودِ بفضل الكلوهيّة، بحيث تسقطُ الفواصلُ بين الخطأ والصحّ، بين الصّالح والطّالح، بين المذنبِ والبريء:

“So the wrong-doer cannot do wrong without the hidden will of you all… The righteous is not innocent of the deeds of the wicked, and the white-handed is not clean in the doings of the felon.” (Crime and Punishment).

جميعُ أعمالِ البشر تتَّحِدُ في الذّات المجتمعيّة الواحدة، الّتي تحضنُها الذّاتُ الإلٰهيةُ اللاّشخصيّة، الوحيدةُ والموحِّدة، في وحدةِ الكونِ الضّخمِ والمترامي، الأزليّ والأبديّ.

Copyright © PUSEK, Kaslik, 2024 | All Rights Reserved

من وجهة نظر القاضي

رندى كفوري، *رئيسة الغرفة الجزائية في محكمة التمييز اللبنانية، أستاذة سابقة في كليّة الحقوق في جامعة الروح القدس الكسليك*

<u>في الجرائم والعقوبات</u>

لا بد من الإشارة اولًا الى ان جبران شاعر وفيلسوف ينظر الى الحياة والإنسان نظرة مثالية اما القاضي فهو يجمع بين المثالي من خلال حبه للعدالة والمساواة والحرية والعملي من خلال تجربته اليومية واطلاعه على النزاعات بين البشر والتي تبعد كل البعد عن المثالية في التصرف، لذا فهو يتقاطع حينًا مع جبران في ارائه ويبتعد عنها حينًا آخرًا،

خلاصة أفكار جبران ما يلي:

١- ان الإنسان ذات طبيعة مزدوجة منها الذات الإلهية التي لا تعرف إلا الخير والذات الإنسانية التي تستجيب لنزواتها وتخطئ وتتوه فلا تسمع الذات الإلهية وترتكب الجرائم بحق الغير، وهو ولئن تكلم عن المسخ الذي يمشي في الضباب فلم يجعله مسؤولًا او عارفًا بالجرائم،

٢- ان الضحية والمجتمع ليسا بريئين من الجرم، ويجب معاينة جميع الأفعال في وضح النهار،

٣- الندم هو أكبر عقاب،

٤- أصحاب النوايا الشريرة ومن يقتلون الروح يبقون دون عقاب وجرائمهم ليست أقل،

كل هذه الأفكار صحيحة الا انها ليست مطلقة فإن صح ان طبيعة الإنسان مزدوجة فبعضهم ذاته الإلهية اقوى من ذاته البشرية فيجد سعادته بالخير والقيم وليس بتحقيق رغبات مادية بحتة على حسابها، كذلك وان كان للضحية دور احيانًا فإن ذلك لا يصح دوما فما هو دور الضحية التي تقتل نتيجة شجار بين آخرين لا دور لها فيه ولم يكن بمقدورها وقفه، او تقتل نتيجة انتقام الفاعل من والدها او شقيقها، وان كان صحيحًا ان المجتمع مسؤول عن الفقر والجهل وهما عاملان مهمان في ارتكاب الجرائم، الا ان هذه المسؤولية لا تنسحب بالتساوي على كل فرد فيه، كذلك وان كانت بعض العوامل تؤثر في ارتكاب الجرائم الا انه لا يمكن ان ننسى ان الإنسان يبقى له في جميع الظروف حرية الاختيار،

يأخذ القاضي بعين الإعتبار ما لفت اليه جبران فينظر الى الجريمة بكل جوانبها بما فيها الظروف التي تحيطها وظروف المجرم الشخصية كما والأسباب التي حملته على ارتكابها، ويدقق بجميع أفعاله فيوقف تنفيذ العقوبة اذا كان سجله العدلي نظيفًا، ويخفف العقوبة عملًا بمبدأ فردية العقاب اذا رأى ان المجرم قد ندم او ان ظروفًا مؤلمة كانت سببًا في ارتكاب الجريمة، والفاعل يعد ممارسًا لحقه اذا كان بحالة الدفاع عن النفس اي متى كان فعله نتيجة ضرورة حالية لدفع تعرض غير محق ولا مثار على النفس او الملك او نفس الغير او ملكه، ولا عقاب في حالة الإكراه او لدفع خطر شرط طبعا ان يكون الخطر متناسبًا مع الفعل، كما يأخذ القاضي بعين الإعتبار الضرر الذي نتج عن فعله فلا يعاقب بالسجن من سرق تفاحة او رغيف خبز، كما ينظر الى القصد الجرمي والدافع وبالتالي الى تصرف الضحية،

والعقوبة ضرورية لحماية الناس والمجتمع فبعضهم يسكت ذاته الإلهية وهي الضمير فينا ويترك العنان لنزواته ومصالحه ورغباته المادية فلا يأبه بقتل الغير او الإضرار به ولا يسمع ضميره او توبيخ ذلك الضمير، فاغراض العقوبة عدة منها الردع والإصلاح، والنزعة الحالية هي استبدال العقوبات في الجرائم غير الخطرة بعمل اجتماعي يفيد المجتمع والمجرم، السجون الحديثة تسمح للمجرم ان يتطور، كذلك النظرة للجرائم تتغير فبعضها لم يعد يعتبر جرمًا انما مرضًا كالإدمان على المخدرات، هذا مع الإشارة الى انّه ان لم يكن للمتضرر من الجرم حق اللجوء الى القضاء الذي ينزل عقوبة بالجاني قد يلجأ الى أخذ الطار وتبدأ مرحلة من العنف المتبادل كما كان يحصل سابقًا ولا يزال في بعض البيئات والقبائل، والى ان الجاني الذي ندم عن فعله يتطلع الى العقوبة التي تنزل به كخشبة خلاص من تعذيب ضميره اذ يشعر بأن عليه دفع ثمن ما،

اما أصحاب النوايا الشريرة الذين يقتلون الروح فتنالهم أحيانًا عقوبة، العنف المعنوي مثلًا يؤخذ بعين الإعتبار وترتب عليه نتائج، لكن أكبر عقاب يبقى بالنتيجة فقدانهم لإحترام الغير لهم واحترامهم لذاتهم، ومن ثم ندمهم حين تستفيق ذاتهم الإلهية التي اسكتوها، او حين يقابلون خالقها.

<u>في القوانين</u>

يطرح جبران خليل جبران في هذا النص عدة افكار تنطلق كلها من ايمانه بالحرية وعدم تقييد الإنسان بالقوانين، سوف أعلق عليها تباعًا انطلاقًا من نظرة القاضي الذي يطبق القوانين ويفسرها:

الفكرة الأولى: ان الإنسان يضع القوانين الا انه لا يأبه بها ويسارع لكسرها وكلما بنيت ابراج من الرمل حمل الموج مزيدًا منه

ان جبران يلخص النزاع بين القواعد وحب الحرية من جهة والقواعد والتطور من جهة اخرى، فالقوانين لتحترم وتبقى يجب الا تكون جامدة بل قابلة للتطور وفق متطلبات التطور الإجتماعي والثقافي، وان لا تكون قامعة للحرية بل تترك لها مسافات،

الفكرة الثانية: ان بعض القوانين وضعت بناء لنظرة او مصلحة من وضعوها،

يجب التمييز بين نوعين من القوانين تلك المنبثقة من القانون الطبيعي وهي القواعد التي يمليها الضمير والعدالة الإجتماعية التي تأبى الإضرار بالغير او بالمجتمع دون رادع، وترفض عدم المساواة، كالقواعد في قانون الموجبات والعقود التي تقضي بأن العقد يجب ان يكون نتيجة ارادة حرة وصحيحة فتبطل العقود التي يتخللها خداع او غبن، وتلك التي تجيز اعادة المبيع لعيب فيه والتي تلزم الفريق باحترام الموجبات المتبادلة، والتي تقضي بالتعويض عن الضرر غير المشروع الذي يلحقه أحد الناس بغيره،

ونوع آخر من القواعد وهي لغايات تنظيمية، ولمنع عدم الإستقرار في التعامل.

لا شك ان بعض القوانين قد أملتها مصالح شخصية او نظرة محدودة كما يقول جبران نظرة الى الظل وليس الى النور وتلك يستبعدها القاضي انطلاقا من دوره بتفسير القانون وفق مبادئ صحيحة، وهي لا تدوم اذ يرفضها الإنسان في صميمه،

الفكرة الثالثة: ان من يتطلع الى الحقيقة ويتبع شريعة الحياة لا حاجة له للشرائع

ذلك صحيح ويا ليت ان كل انسان يمشي في النور والحقيقة ولا يضر بغيره انما هذا الأمر مثالي ويبتعد احيانًا كثيرة عن الواقع، ولذلك تبقى الشرائع ضرورة، كي لا تسود شريعة الغاب والظلم فالقوي يأكل حق الضعيف، ويجب دومًا تطويرها وتحسينها لكي تتلاءم مع العدالة والمساواة بين الجميع وتفسيرها وفقًا للغاية التي وضعت من اجلها والتطور والحريات، كما يقتضي استبعاد النصوص التي يتبيّن انها وضعت بناء لنظرة محدودة او معقدة او لأسباب ومصالح شخصية او فقط للحد من الحريات او المساواة، كالحصانات مثلًا وبعض الإمتيازات وهي تلغى احيانًا نتيجة الإجتهاد كما حصل في العديد من البلدان المتطورة، وما جعل جبران ينتقد القوانين هي تلك

الشرائع التي املتها نظرة متحجرة وعقلية رجعية غير قابلة للأفكار الجديدة والمتحررة، والتي عانى منها شخصيًا او عانى منها بعض شخصيات رواياته،

وكما يقول جبران في نهاية هذا النص لا يمكن قيد الحرية وهي من اهم حقوق الإنسان طالما انها تمارس دون تجاوز.

جبران في فصلين من كتاب "النبي" على ضوء التحليل النفسي

ديزيريه قزي، *بروفسورة، أستاذة باحثة في علم النفس في الجامعة اللبنانية*

١) فصل "الجريمة والعقاب"

جبران خليل جبران اسمٌ اختار "الخلود": خلود الاسم بالفعل والإرادة والعمل. هو ابن بشري (ولد في ٦ كانون الثاني ١٨٨٣) لأُسرة من أربعة أولاد: بطرس، جبران، مريانا وسلطانة، وأُمٍّ قديرة وأبٍ سكّير. اكتسب جبران منذ طفولته حب القراءة والرسم، وكانت أمّه خير داعم في مسيرته الأدبية والفنية، وضحّت لأجله في الولايات المتحدة كما في لبنان.

تعرفتُ إلى أدب جبران في سن مبكرة، وأذكر أنني، ذات سنة مدرسية، قرأتُ له نصًّا كتبه سنة ١٩٠٢ يرثي فيه أخته سلطانة، جاء فيه: "لقد مات ربي عندما ماتت سلطانة، فكيف أحيا بعد اليوم يا رب؟"، وهو كذلمك فقد أخاه بطرس ثم أمه كاملة.

من خلال هذه الصرخة التي وجهها إلى الله، جعلني جبران أغوص على عمق الألم، وأعلم جاهدةً أن الألم هو ما يسعى عبره الإنسان ليستعمل مواهبه ويرتقي إلى الإبداع، ومن نواحيه: الغوصُ على النفس البشرية لاكتشاف مكامنها، كما فعل جبران. فهو لم يكن أديبًا وفيلسوفًا ورسامًا وحسب، بل كان عالِمًا في النفس البشرية. ومنذ تكلم عن أمور نفسية محضة في نصوصه، ووصفها وصفَ من عاش شخصياتها. وهو أول ما أحببت واكتشفت في علم النفس بل في التحليل النفسي.

ذلك المبدع لم يترك أمرًا إلا غاص عليه، وجعلنا نطرح نقاط استفهام حول الوجود الإنساني ومعناه الأعمق.

عندما قرأت فصل "الجريمة والعقاب" في كتاب "النبي" بترجمة الشاعر هنري زغيب، وجدت مفاهيم كثيرة تُقال وتُكتب في علم النفس والتحليل النفسي. ففي مطلع هذا النص جاء: *"ثم دنا منه أحد قُضاة المدينة وقال له: "كلمنا في الجريمة والعقاب"، وأجاب عن نقاط كثيرة أفنّدها في مقاربة مع التحليل النفسي"*.

١) عندما تتيه الروح في الريح وتغرق في اللاقانون واللارقيب، ترتكب الأخطاء بحق الآخر، والخطأ الذي نرتكبه يرتدُّ سلبًا علينا. وهنا مشورة الحكماء (نظرية تطابق نظرية الجهاز النفسي

الذي يتكلم عنه سيغموند فرويد الطبيب النمساوي ومؤسس التحليل النفسي (١٨٥٦-١٩٣٩)، وقد يكون، في مكان ما، تأثَّر برؤيته حول القانون والسلطة.

٢) ذاتكم الآلهية هي كالبحر (هي مجهولة بالنسبة إلى جبران) ويمكن، بحسب الفلسفة، أن تذهب وتعود لعدة مرات. أما في التحليل النفسي فيعيدنا إلى فرويد الذي مرارًا يذكر الموت المفروض على الإنسان ولا يستطيع شيئًا حياله. ويكمل أنّ في الإنسان أيضًا مسخًا مشوهًا لم يُمْسِ إنسانًا بعد، والإنسان يعرف الجريمة وعقوبتها. وحول ذلك وضع فرويد الجهاز النفسي وتركيبته في نموذج نظريّ لفهم الوظائف النفسيّة للشخصية من خلال دراسة العلاقات الدينامية في القوى النفسية المختلفة والمكونة للشخصية، كاللاوعي والوعي والـ"هو" والـ"أنا" الأعلى والـ"أنا" كما في دراسته لدى معهد الحكمة في بيروت سنة ١٩٠٠.

قسَم فرويد الحياة النفسية إلى ثلاثة أجزاء: اللاوعي (inconscient) وهو يشكل الجزء الآخر في الجهاز النفسي، وما تحت الوعي (Préconscient) والوعي (conscient) الذي يعتبر الجزء الأخطر في هذا الجهاز. لكن هذا التقسيم السُكوني (Statique) لم يُرضِ فرويد فظلَّ يبحث سنواتٍ عن بنية الجهاز النفسي، حتى توصَّل إلى تحديد ثلاث طبقات رئيسة قائمة على المنظور الدينامي: الـ"هو"، الـ"أنا" والـ"أنا الأعلى".

الـ"هُو" (Le ça) هو الجانب اللاواعي في الجهاز، ويشمل الدوافع الغريزية العمياء التي تعمل بحسب مبدأ اللذة وتسعى إلى الإشباع، والـ"هو" شبيه بالحيوان الأعمى، وهنا نلتقي بكلام جبران خليل جبران عن "المسخ المشوَّه الذي يمشي غافيًا في الضباب باحثًا عن يقظته" (أو وعيه) حسب فرويد.

الـ"أنا" (Le Moi) يمثل الجانب اللاواعي في الشخصية ويرمي إلى تحقيق التكيُّف مع العالم الخارجي بحسب مبدأ الواقع، ويدخل في نشاطه المنطق والإرادة والتفكير، وهو يلعب دور الملك أو القاضي، وهنا نلتقي بكلام جبران في فصل "الجريمة والعقاب": *"لذا سأحكي الآن عن الإنسان فيكم، لأنه هو الذي يعرف الجريمة وعقوبتها"*. ويستطرد: *"لا ذاتكم الالهية"*. وفي وصفه السابق لهذه الذات (في المقطع الثالث) يصفها كما يصف فرويد الـ"أنا الأعلى" كمجمل الروادع الأخلاقية والاجتماعية، وتكمن وظيفته في ممارسة الرقابة والردع والعقاب على الـ"أنا" لضبط الغرائز (دور القاضي). لكن هذه المفاهيم المذكورة تبقى احترازية ولا يمكن ملاحظتها مباشرة بل يُستدلُّ عليها من سلوك الفرد وما يعتريه من خلل أو اضطراب. "هكذا يبقى هذا الإنسان فيكم" والـ"أنا" في تعبير فرويد يتعرض لضغوط الـ"هو" من جهة (المسخ المشوه) والـ"أنا الأعلى" من جهة أخرى (الروادع)

أو الذات الإلهية. فعندما تُرتكب الجريمة قد يكون الإنسان اقترفها عمدًا وتصميمًا لكي يحقق وجوده ضمن مجموعة أرادت أو قصدت ذلك عن وعي أو غير وعي منها.

ولكن هنا نتكلم عن وعي أو لاوعي من أسباب اقتراف الجريمة، وربما يتدخّل اللاوعي الجماعي في هذا الفعل وفي اقتراف الجريمة. واللاوعي الجماعي حسب كارل غوستف يونغ في كتابه "جدلية الأنا واللاوعي" لا يحتفظ اللاوعي بمواد شخصية فقط، إنما بعوامل لاشخصية أيضًا، وهي عوامل جماعية على شكل مجموعات موروثة ونماذج بدئية. ويكمل يونغ في هذا السياق قائلاً: *"إن اللاوعي يحتوي في طبقاته العميقة مواد جماعية حية وفاعلة نسبيًا. وهكذا كنت مقادًا إلى التحدث عن لاوعي جماعي"*. وعندما يسقط الشخص في الجريمة أو في فعلٍ قد يكون كما يقول جبران *"يسقط إنقاذ مَن خلفَه منبّهًا إياهم عن الخبر الداهم" وهو يسقط أيضًا ضحية مَن أمامه خطَوا بخطى مُسرعة وثابتة ولم يزيحوا من مكانه حجر العثرة* ". فالمجتمع في رأي جبران مترابط. ومَن يستطيع إزالته وإزاحة حجر العثرة من أمام الأبناء سوى أهلِهم بالتربية السليمة والمُحبة؟ وهذا ما يعلمنا إياه علم النفس وما قد يكون جبران افتقده في عائلته.

٣- يتكلم جبران على فكرة أساسية في التحليل النفسي: مبدأ (السببية) الـ (causalité) "القتيل ليس بريئًا من مقتله..." وهذا ما يركز عليه التحليل النفسي. فنحن دومًا من خلال تصرفاتنا اللاواعية نبحث عن المكافأة أو العقاب وهذا يعود إلى التربية وميلنا إلى عيش نزوة الحياة أو الموت.

٤- لا يرى جبران فرقًا بين المذنب وروح الضحية، فللخير والشر منبت واحد وأرض واحدة وانطلاقة واحدة. وذلك طبعًا يعود إلى التربية ومَيْلُنا إلى عيش نزوة الموت أو الحياة.

٥- يعود جبران في نصه لتوجيه الكلام للقضاة والمضمرين أن يضعدلوا (ويُميزهم بميزة "العدل") كأنّه يتكلم عن طفولته وأبيه السكير الذي اتهموه بالسرقة. ويبرر هنا الأب وصورة الأب، واسم الأب، بحسب المحلل النفسي جاك لاكان، هو من يُعرّف عن ابنه ويعطيه الاسم، ولعلّ جبران هنا يبرّئ أباه خليل على كل أفعاله، فيعارض القانون بقوله: *"أليس في الندم عدالة قانون تستندون إليه كي تحكموا"*، ونرى استياء جبران من تطبيق القانون في غير محله.

٦- يُنهي جبران النص: *"الراغبون في فهم العدالة يجب أن يروا الجريمة من النواحي كلها"*. فالمذنب والمقتول مُدان، والناجي والساقط يتأرجحان دومًا بين الجسد (الـ"هُو" اللاواعي وأهدافه) والروح (الـ"أنا الأعلى" وفروضه وترفعه). وهنا لا فرق بين المسخ الذي فينا والمتجسد في الـ"هُو"، و"الذات الإلهية" المترفعة التي تمثل الـ"أنا الأعلى"، في الإنسانِ الذي قرر أن يصغي ويتبع الأهواء أو المثاليات،

ومتى وعى الإنسان طبيعة كيانه وشخصيته، عليه أن يسعى دائمًا إلى المساواة الاجتماعية بين البشر.

٢) فصل "القوانين"

في هذا الفصل يتقدم محامٍ يسأل المصطفى: "وماذا عن قوانينا يا معلم" (يأخذ صفة "المعلم"، وهذا من تأثره بالدين)، فأجاب:

١- الإنسان يفرح بل يغتبط بسنه القوانين ويفرح أكثر عندما يكسرها بعدم تطبيقها. يبني الأبراج ثم يحوِّلها رملية حيث الفراغ وعدم الاستقرار، ونحن نعلم أنْ حيث لا قانون لا استقرار. ونتذكر هنا كيف الإنسانُ بطبيعته الأساسية يحلم بهدم السلطة وصورة الأب والقانون في المجتمع. وهذا ما ذكره فرويد في كتابه "الطوطم والحرام" (Totem et tabou) فتحدث عن الوليمة الطوطمية حين اجتمع الإخوة المطرودون وقتلوا الأب وأكلوه واضعين حدًّا لوجود النقيل الأبوي. فلما التأم شملهم دبّت فيهم الجرأة والجسارة، واستطاعوا أن يحققوا ما كان كل واحد منهم يعجز بمفرده عن تحقيقه وبهذا يقتلون معه جميع الروادع (والمنع عن زنن المحارم) من قوانين وأعراف، ويعودون بعدها إلى بناء ما يشبه الأب (القانون في المجتمع) لشعورهم بالذنب. وهنا يصبح الميت في موته أقوى مما كان عليه في حياته. وتنشأ عند الأبناء تلك "الطاعة المرجأة" المميزة لموقف نفسيّ بات لدينا مألوفًا ويشرحه التحليل النفسي حسب فرويد (الطوطم والحرام). وفي ذلك يتحدث جبران عن الصلابة النفسيّة (التصلُّب) بل يحذِّر منها بسبب عقدة الذنب المتأتية من قتل القانون واستباحته، وتعويضًا عن ذلك يصبح القانون إزميلاً حوَّل حياتَهم إلى صخرة (وأنظر إلى الصخرة ببرودتها وقساوتها وثقلها)، فكيف أن يعيش الإنسان في هذه الصورة؟!

٢) من يستطيع تحقيق العدالة الأرضية؟ لا أحد!! ومن يحاول ذلك يتعب "لأن المقعد يكره الراقصين"، وتاليًا لا يتمتع بجمال الرقص. "والعبد يكره الحرية والثور يحب نيره وعبوديته ويحكم على الظبي الشارد في الغابة!". وماذا عن الذين يفقدون القدرة على القيام بأي عمل (تفكير، إنجاز، أو حكمة) وينعت الآخرين بالغباء والجهل من جراء الحسد والغيرة. ("يأتي ليأكل ثم يذهب ويلعن"). هذه المشاعر جميعها خارجة عن قوانين الحياة، وفْق جبران والتحليل النفسي (العبودية، الافتراء، الحسد والغيرة، الافتراء على الآخرين، ...).

٣) الإنسان واقف في الشمس، واقف في النور والحقيقة، لكنه يدير ظهره لها. الشمس هنا، في ذهن جبران، ليست سوى الحقيقة الكلية فأي مفاهيم أرضية تعيق الإنسان؟ الحقيقة نسبية في علم النفس كذلك: لكل شخص معاشه، قضاياه، تاريخه، حقيقته، بحسب ما تربَّى واكتشف الحياة.

ويتوجه جبران أيضًا إلى المسافرين في الريح عبر الزمن معبّرًا عن أهمية: العدالة المطلوبة ضد الظلم، الحرية "وارقصوا ضد القيد"، والحرية التي لا تؤذي الآخر. لذا يدعو جبران الإنسان إلى أن يبقى حقيقيًّا دون أن يؤذي الآخر، فقوانين الطبيعة تقوم على الحرية والتعبي

القانون والرحمة عند جبران خليل جبران
وفي المجتمعات الأوروبّيّة منذ العصور القديمة حتى القرون الوسيطة

ميراي عيسى، *بروفسور، باحثة في اللغة اللاتينية وآداب القرون الوسطى في جامعة الرّوح القدس –الكسليك*

إذا عُدَّ القانون بطبيعته التعداديّة مادّةً جافّةً منفّرة، فإنّ تنوّع المقاربات يسمح بتفسيره في ضوء التاريخ واللغة والأدب والفلسفة واللاهوت. وغالبًا ما يُنظر في القانون بوصفه مرجعيّةً متساميةً (transcendante)، وهذا الأمر لا يخلو من بعض المغالاة لاسيّما عندما يُصبح واجب احترام القوانين يُشبه فرضَ طقوسِ عبادة الأصنام. إنّ ما يقوله جبران خليل جبران في القانون في فصلَي "الجرائم والعقوبات" و"الشرائع" من رائعته **النبيّ**[١] يُمكن أن يختزل تجاربَ قانونيّة وقضائيّة تَشغل الإنسانيّة جمعاء وتعنيها، وأن يُنشئ نهضةً روحيّةً وفلسفيّةً في اشتراع القوانين وتطبيقها.

من أعظم الأمور التي تستفزّ جبران خليل جبران لدى وقوع عملٍ آثمٍ انحيازُ المجتمع انحيازًا كلّيًّا إلى الضحيّة حتّى أبلسة المرتكب وعزله خارج بيئته، وكأنّ النّبذ (ostracisme) حلٌّ يتيح القضاءَ على الشرّ. وهذا ما يرمي إليه قولُ الكاتب في فصل "الجرائم والعقوبات": *"قد طالما سمعتكم تتخاطبون فيما بينكم عمّن يقترف إثما كأنّه ليس منكم، بل غريب عنكم ودخيل فيما بينكم*[٢]"، يضيف إليه في الفصل ذاته: *"إليكم يا أبناء أورفليس هذه الكلمة التي، وإن حلّت ثقيلةً على قلوبكم، فهي الحقيقة بعينها: إنّ القتيل ليس بريئًا من جريمة القتل، وليس المسروق بلا لومٍ في سرقته*[٣]". إنّ أقسى ما يؤلم جبران غلوُّ أبناء الخير في احتكارهم الحقَّ والعدل. لذلك يُسارع الى تفسير أسباب السقوط في فصل "الخير والشّر"[٤]، ليعزوها الى تجربةٍ ضاغطةٍ يُمكن أن يقع فيها أيُّ إنسانٍ، وليجزم أنّ *"الخير إذا جاع سعى إلى الطعام ولو في الكهوف المظلمة*"[٥]. ومن ثمّ، يُتّهم جبران خليل جبران زورًا باعتماده الثنائيّات وبرغبته في خلق جدليّات سطحيّة، قاطعة، تخلو من النضج والعمق، في حين أنّه في الواقع يبني جسورًا بين الأبيض والأسود، بين الثواب والعقاب، وبشكل أوسع بين الخير والشرّ.

---

[١] ج. خ. **جبران**، النبيّ، ترجمة أنطونيوس بشير ١٩٣٢، الناشر مؤسسة هنداوي، وندسور، ٢٠١٧. يقع فصل "الجرائم والعقوبات" في ص ٤١–٤٤. وفصل "الشرائع" ص ٤٥–٤٦.

[٢] "الجرائم والعقوبات"، ص ٤٢.

[٣] المرجع سابق.

[٤] "الخير والشرّ"، ص ٦٣–٦٤.

[٥] "الخير والشرّ"، ص ٦٣.

فعندما يقع الشرّ يتشارك الكلّ في مسؤوليّة الأذى الذي يُراد تحميله لجهة واحدة لا تتمنّى إلّا إيجاد كبش فداء يُحرق على مذبح أنانيّتها. لذلك نرى الأديب الفيلسوف يُحذّر في فصل "الشّرائع" من الوقوع في فخّ توثين الشريعة وعبادة القوانين: "*ماذا أقول في أولئك الذين يحسبون أنّ ... الشريعة إزميلٌ حادٌّ يأخذونه بأيديهم لكي ينحتوا هذه الصخرة على صورتهم ومثالهم*؟[٦]" فيستفيض جبران في استهجان ضيق أفقهم وتنكّرهم إنسانيّتَهم، وفي انتقاد نرجسيّتهم: "*إنّهم كجميع الناس يقفون في أشعّة الشمس، ولكنّهم يولون الشمس ظهورهم. فهم لذلك لا ينظرون سوى ظلالهم، وظلالهم هي عند التحقيق شرائعهم المقدّسة*"[٧]. لا شكّ في أنّ القارئ استشفّ سخرية جبران في كلمة "مقدّسة" ورغبته في نزع صفة القدسيّة عندما ألصقها بشرائع "صخريّة" صنعتها قلوبٌ وضمائرُ متحجّرةٌ تُسكرها ظلالها، لا بل تُعميها إعماءً. وكلّنا يعلم أنّ كتاب **النبيّ** نتاجُ خوضِ جبران تجاربَ فلسفيّةً وروحيّةً متعدّدةً حتّى متضادّة، عاشها الأديب في الولايات المتّحدة بين ١٩١٨ و١٩٢٣. ورغم قراءته نيتشه وانجذابه إلى الحكمة الإلهيّة (théosophie)، إلّا أنّ تأثير يسوع المسيح في كتاباته يبقى الأعظم. أمّا فصلا "الجرائم والعقوبات" والشرائع" فإنّهما، وقد تناولا مسائلَ قانونيةً حسّاسةً أهمُّها عقوبة الموت، لا يُناديان بموت المرتكب، إذ ليس القانون أداةً للتشفّي والتهكّم والانتقام، بل بإنصاف المظلوم وإصلاح المذنب. أفليس هذا ما يُذكّرنا بصوت النبيّ حزقيال من العهد القديم الذي يُعلن باسم الإله: "*هل مسرّةً أُسرّ بموت الشّريرِ؟ ألا برجوعه عن طرقه فيحيا*؟[٨]" وعليه، تُستمدّ طبيعة القانون من طبيعة الإله الرؤوف المحبّ البشر (philanthropique) الذي يرفض موت الشرير.

لكنّ مفهوم الرحمة في الحياة القضائيّة والقانونيّة ليس مطلبًا جبرانيًا ولبنانيًّا وحسب. لنُلقِ نظرةً على الأداء القانونيّ في العصر الرومانيّ، الملهِم الأساسيّ لقوانين العالم الحرّ لاسيّما بشقّه الجزائيّ، وهو الأداء الذي أمدّ الإمبراطور يوستينيانوس في القرن السادس بالقاعدة الأساسيّة التي ساعدت علماء القانون في اقتراح تشريعات جديدة وسنّها، جُمعت في كتاب واحد عنوانه *Corpus juris civilis*. وقد شاع عن الحياة القضائيّة في الحضارة الرّومانية إبّان العصر الكلاسّيكيّ تقيّدها الشديد بتطبيق القوانين تطبيقًا حرفيًّا: أفلم يُصلب المسيح والقدّيس بطرس لأنّهما يهوديّان، في حين قُطِع رأس القدّيس بولس لأنّه مواطن رومانيّ؟ لا بدّ هنا من أن أُذكّر أنّ اللاهوتيّين الذين يعملون على تأويل الكتاب المقدّس (exégèse) يلجؤون إلى عبارة "العصر الحديديّ" للإشارة إلى العصر الرومانيّ، وقد تكرّست سمعته الجائرة من جرّاء الانتصارات والفتوحات المتتالية وتطبيق الشّرائع تطبيقًا صارمًا، لا بل مجحفًا ظالما. ومع ذلك، فإنّنا نسمع أصواتًا مستنيرةً

---

[٦] "الشرائع"، ص ٤٦.

[٧] المرجع سابق.

[٨] حزقيال ١٨، ٢٣.

تنادي بالرحمة، ومنها مثلٌ باللغة اللاتينيّة يُنسب إلى شيشرون القائل: *summum jus summa injuria, summa lex summa crux*، أي *"إنّ حكم القضاء الأقسى ضررٌ مذلٌّ فادحٌ، والقانون الأقسى صليبٌ ثقيلٌ"*. يكفي أن نستشهد بأمير البلاغة، وهو محامٍ عضوٌ مشاكسٌ في مجلس الشيوخ، لنرى أنّ القانون الرومانيّ، وإن لم يُشعِرنا بتغيير جادّ سريع، يستنهض الناس من أجل تلبية حاجات النفس البشريّة، ومن أهمّها الرحمة في قوس المحكمة. لننظر في الإلهة يوستيتيا Justitia، رمز القانون والعدالة عند الرومان، وهي نفسها الإلهة تِميس Thémis عند الإغريق. تتجلّى يوستيتيا أمامنا وهي تحمل سيف الحقّ القاطع وميزان العدل، وهما دلالتان على وظيفة الآلهة، أي تطبيق القانون. لكن ما هو أهمّ من السيف والميزان إنّما يدلّ على رمزيّة العصابة التي تعصب بها يوستيتا عينيها لتتجنّب التأثّر بأيٍّ من الفريقَين، أي لتقف موقف عدم الانحياز. ثمّ نراها فيما بعد حاملةً سيفَها وميزانَها، ولكنّها مفتوحة العينَين، ما يُنبئ بتطوّر هامّ في ممارسة الحياة القضائيّة يحثّ القاضي عند إصدار الأحكام على النّظر نظرَ المساواة في وجهِ كلٍّ من الفريقَين، ليسمع صوتَ كلٍّ منهما ويفهم نظرته الخاصّة.

يعاين المرءُ التطوّر الإيجابيّ هذا في العصور التي تلت العصور القديمة، اذ أصاب الحياة القانونيّة والقضائيّة في البلدان الأوروبّيّة، لاسيّما فرنسا وألمانيا، بين القرنَين الثاني عشر والسابع عشر. غير أنّه لا بدّ من توصيفٍ بسيطٍ للحياة القانونيّة في القرون الوسيطة التي عرفت، على الرغم من جدّيتها[٩]، ممارساتٍ قضائيّةً تخالف القانون، فلا ترتكز على أيّ مسوّغ شرعيّ، مثل مبارزة الفرسان وحرق السحرة والمشعوذين والمهرطقين، وهي جميعها – وهذا أقلّ ما نستطيع قوله – تُهين العقل البشريّ في العصور الحديثة. وممّا يُعرف عن اللجوء إلى هذه الممارسات أنّها كانت دائما تُغطّي عجز المحاكم الشرعيّة وتُطبَّق بشكل أحكامٍ عرفيّةٍ تتداخل فيها التقاليد الاجتماعيّة والحسابات التي تُمليها المصالح وموازين القوى، وأوّلها خوف بعض رجال الكنيسة وبعض السياسيّين من فقدان السلطة. لذلك كانت هذه الممارسات توسَم بأسماء وعبارات تُكسبها شرعيّةً دينيّةً وازنة، فأصبحت مبارزة الفرسان مثلًا حكمًا الهيًّا (jugement de Dieu) يُعَدّ المنتصر

---

[٩] ما علينا إلّا أن نلقي نظرةً على سيرورة الحياة القضائيّة في أورشليم، عاصمة مملكة اللاتين في القرنَين الثاني عشر والثالث عشر، إذ أُنشئت المحاكم في العاصمة التي كُرّست مركزيّتُها الإداريّة والسياسيّة بالاختصاصات ذاتها تقريبًا التي نعرفها اليوم، أي التّمييز والاستئناف، وكلّها يراعي جنسيّات الفرقاء. يعتبر الكونت بونيو Beugnot مؤرّخَ هذه المرحلة الأساسيّ:

Les assises de Jérusalem ou recueil des ouvrages de jurisprudence composés pendant le XIII^e siècle dans les royaumes de Jérusalem et de Chypre.

فيها فارسَ الله المختار، ولو كان مرتكبًا، فيُطلَق الحُكم لمصلحته على حساب الحقّ الفرديّ والحقّ العامّ. يزداد الأمر بشاعةً عندما نتكلّم على المحرقة، وهي أداةُ عقاب رهيبة استُعملت منذ القرن الثاني عشر وازدهرت في القرن السادس عشر عند نشوء الدعوة البروتستانتيّة، ثمّ عُلِّقت في القرن السابع عشر. فكان السحرة مثلًا، وغالبيّتهم من النساء، يُتّهمون بالتأثير في مصير البشر بواسطة بضع كلمات مبهمة. لا بدّ هنا من شرح فيلولوجي لبعض المفردات، ومنها sorcier, sorcière المشتقّتان من الأصل اللاتينيّ *sortiarius*, *sortiaria* المنبثق من كلمة *sors* أو sort أي القدر والمصير. فعندما يتلاعب الساحر بمصير الإنسان ويُحوّل مسار قدره، يُتّهم تلقائيًّا بالتطاول على الإرادة الإلهيّة والاستيلاء على السلطة الكنسيّة التي تُمثّل الله، الكائنَ الوحيدَ الذي يُمسك بأقدار البشر. وهذا ما دفع بعض رجال الدّين، لاسيّما الأشدّاء منهم الّذين أنشأوا محاكم التّفتيش (Inquisition) وعزّزوها، إلى اتّهام خصومهم بالشعوذة والجنون، حتّى التلبّس الشيطانيّ، فأطلقوا أحكامهم بالحرق متسلّحين بطبيعة النار التطهيريّة. أفلا تُنبِئنا علوم الأخرويّات (eschatologie) أنّ الأديان بمعظمها تُبشّر بجحيمٍ تتآكله النيران؟ ثمّ استعانوا باللغة الدِّينيّة لاستحداث اصطلاحٍ يُشرّع عمليّة العقاب، فكانت عبارة "فعل إيمان" *actio fidei* أو *actus fidei* التي تطوّرت إلى اللغتَين الإسبانيّة والفرنسيّة، فأفضت إلى ولادة كلمة autodafé، وقد ورد آخرُ استعمالٍ لها بمعناها العقابيّ بقلم فيلسوف عصر الأنوار (القرن الثامن عشر) فولتير الذي أدرجها في سياقٍ ساخرٍ في كتابه *Candide*. يبقى أنّ عقاب المحرقة أخذ يسقط ويَبطل شيئًا فشيئًا منذ القرن السابع عشر، وهو عصر ديكارت أي عصر العقل، لا بل العقلانيّة. فإذا برجال الكنيسة أنفسهم الذين تذرّعوا منذ عقودٍ قليلةٍ باتّهامات الدجل والتدخّل الشيطانيّ يتراجعون عن أحكامهم ويرجّحون كفّة التشخيص العقلانيّ الذي بدأ يخطو خطواته الأُوَل في طبّ الأمراض النفسيّة. اذًا، لا بدّ من الاعتراف، أكان الامر في أدب جبران خليل جبران أم في الشرائع الاوروبية، أنّ القوانين وضعت لتكون بخدمة الانسان، علّه يحقق سعادته ويعمل من أجل مجتمعه.

دراسة فلسفية حول نصي "الجريمة والعقاب" و"القوانين" في النبي لجبران

كارين نصر دميرجيان، *دكتورة، أستاذة الفلسفة في جامعة الروح القدس الكسليك*

<u>في الجريمة والعقاب</u>

يبدأ جبران باعتبار الجريمة خطأ بحق الآخرين وبحق الانسان المرتكب، وهنا نتلاقى مع مبدأ أساسي في فلسفة القانون. يمكن أن نعتبر أنّه من البديهي أن تكون الجريمة خطأ بحق الآخرين، ولكن كيف يمكن أن تكون خطأً في حق الذات المرتكبة؟

هنا اخترت أن نتلاقى مع كانط الذي يعتبر أنه: "*ما من شيء على الإطلاق في هذا العالم يمكن اعتباره جيدًا في ذاته دون قيد أو شرط سوى الإرادة الخيّرة*". الخير لا يقاس بالنتائج، بل بإرادة الشخص الذي تجعله يقرر ويختار الخير. المرجع في النهاية هو الإرادة الحرة. وهو يؤمن بكونية القانون الخلقي لأنه صوري، وغير ناشئ عن أي نزعة تجريبية، فهو صالح في كل زمان ومكان. والحق أن الواجب لا يستند إلى العاطفة أو الوجدان، كما أنه لا يقوم على التجربة، خارجية كانت أو باطنية، بل هو يقوم في الأساس على احترام القانون، القانون الذي قَبِلَ به عقلي الخالص وإرادتي الخاصة، فألزمني به ولم يُفرَض عليّ. وبهذا تكمن حريتي في احترام القانون الخلقي. ولكن لما كان الموجود البشري مزيجًا من الحس والعقل. فإنه يتصوّر الخير، ثم قد يقدم بعد ذلك على ارتكاب الشر. ومعنى هذا أن الإرادة البشرية في بعض الأحيان خاضعة لدوافع حسية متعارضة مع العقل. وهذا يتلاقى مع قول جبران "*غالبًا ما سمعتكم تتحدثون عمّن اقترف خطأً كأنّه ليس منكم بل غريبٌ عنكم ودخيلٌ في عالمكم*".

من الناحية الأخرى، الجريمة هي جريمة بحق أي آخر، فمن الناحية الإنسانية، كل إنسان هو كغاية في حد ذاتها، ينبغي على البشر ألا يعاملوا الآخرين أبدًا كمجرد وسيلة لتحقيق غاية، ولكن كغايات في حد ذاتها.

العقاب

من ناحية أخرى، يربط جبران في عنوانه بين الجريمة والعقاب انطلاقًا من مبدأ أنّ كلّ عملٍ سيءٍ ينبغي أن يعاقب. ولكن معاقبة العمل تقتضي أولاً معرفة مرتكب هذا العمل. وهذا منوطٌ بحسب ريكور بقدرة الإنسان على إسناد العمل إليه واعتبار نفسه مسؤولاً عن الفعل الذي يجب

معاقبته. الإنسان المسؤول هو الإنسان القادر على استعمال ضمير الأنا في تحديد المسؤوليات. العمل السيء ناتج عن حرية الإنسان على اعتبار أنّ الشر ليس موجودًا بشكل مستقل عن الإنسان. لذا يُحَمَّل الشخص مسؤولية السوء الذي ارتكبه. وتُفهم المسؤولية القانونية فقط في سياق الالتزام بتصحيح الظلم أو تحمل العقوبة. وهنا تنبع المسؤولية من تقاطع الالتزامين: الفعل، الذي يعاقبه القانون، وتصحيح هذا الفعل. عقوبة الجاني تعني الاعتراف به ككائن عاقل قادر على وضع القانون حتى وإن كان ينتهكه.

وفي هذا السياق، يتحدّث جبران عن تأنيب الضمير الذي يترافق مع ألم وشعور بالذنب ينشأن من وعي الشخص بأنه قام بفعل سيء. يعيش الشخص الذي يشعر بالتأنيب في حالة من الألم تعيقه عن التفكير في المستقبل، إذ يركز على الماضي، وخاصة على الخطأ الذي ارتكبه في هذا الماضي، بهدف محوه. الاعتراف بالخطأ شرط أساسي لتصحيح مسار الأشياء فهو دليل مسؤولية الشخص. فيصبح تأنيب الضمير توبة موجهة نحو المستقبل والعمل. وهكذا، قد تلعب التوبة دورًا كمحفز للتأنيب ليتجاوز مرحلة الذنب إلى مسؤولية فيما بعد لأن عكس ذلك سيؤدي إلى ذنبية مرضية قد تؤدي إلى تدمير الذات من خلال استهانة الذات.

العقاب يعيد إرساء الحق. ووظيفته الأولى هي إصلاح الاضطراب العام عبر استعادة النظام. ومع ذلك، يضع ريكور التركيز الرئيسي على المعنى الأخلاقي للعقوبة حيث يتم التعرف على الضحية علنيًا كمن تم استهدافه بالإهانة، وهذا التعرف يمكن أن يصل، عبر طريق أكثر خصوصية، إلى تقدير الذات، أو إلى كرامة الجودة الأخلاقية للإنسان. الاعتراف بوضع الضحية كضحية يسمح لها بالبدء في عمل الحداد، الذي لم تكن قادرة على إجرائه بسبب خطورة معاناتها غير المعترف بها. هذا العمل من خلال الحداد يشفي الجروح، ويصالح الشخص مع نفسه. هذا النظرة إلى الضحية كنّا نتمنى قراءتها بشكل جليّ أكثر في عمل جبران، فهي ضحية والضحية ليست دائمًا مسؤولة عما يحصل معها.

للعقاب دورٌ آخر وبالغ الأهمية من خلال التطرق إلى الجاني، فدور العقاب هو إعادة تأهيل الأخير، والاعتراف بقدرة المحكوم عليه على أن يصبح مواطنًا من جديد؛ بينما على مستوى الأشكال القانونية، الهدف هو الاعتراف بالشخص الذي تمت إعادته في حقوقه، قدراته، ووضعه القانوني. فيعتبر جبران أنّه يجب تفقد أنّ "جذور الخير والشر وجذور الخصوبة والعقم متلففةٌ في قلب الأرض الصامت"، هذا افتراض أنّ الخير موجود لذلك العقاب هو عقاب العمل السيء من أجل اعادة تأهيل الروابط الاجتماعية واعادة امكانية خير هذه العلاقات. هدف فعل القضاء يتعدى مجرد الأمان، بل يتعلق بالسلم الاجتماعي، كما لا يعد الحكم عملية فكرية فقط، بل هو حكم للأشخاص على أعمال اقترفوها، ومن هنا تأتي ضرورة الاعتراف بفرد قادر، جدير بالاحترام

والتقدير. يتجلّى هذا التوازن بين المسؤولية والهشاشة على مستوى العقوبة وإعادة تأهيل الأفراد، حتى المجرمين الذين قد يكونون، بدورهم، ضحايا لإصابات عائلية أو اجتماعية. فيميّز ريكور بين هدفين للحكم القانوني: الهدف القصير الذي يقتصر على العقاب، والهدف الطويل الذي يعبر عن رغبة في استعادة السلام الاجتماعي، فيبقى الأساس الإنسان والروابط الإنسانية كما يتمناها جبران.

<u>في القوانين</u>

يبدأ جبران حديثه عن سنّ وكسر هذه القوانين. ما هي القوانين؟ وما هو دورها؟

في فلسفة القانون، يُعرَّف القانون عادةً على أنه نظام من القواعد الذي يُنظِّم سلوك الأفراد والمجتمع. يُعتبر القانون مرجعًا لتحديد الحقوق والواجبات في المجتمع، ويقوم بتنظيم العلاقات بين الأفراد والهيئات والمؤسسات. تربط القوانين بين ما هو عام وما يتعلق بإطار محدد. فهي بعموميتها يجب أن تنطبق على حالات خاصة، كما يجب تحليلها بحسب الحالة الخاصة التي يتم معالجتها.

لا يجب أن تكون القوانين قيودًا تعسفية، بل ينبغي أن تكون دلائل تحفظ النظام مع احترام الحرية الفردية. تُعرض القوانين كعناصر ضرورية للحفاظ على النظام الاجتماعي. يجب أن تكون القوانين في انسجام مع احتياجات وقيم المجتمع. التوازن الدقيق بين الحرية الفردية والقواعد الاجتماعية أمر ضروري لازدهار المجتمع. يجب أن تكون القوانين مرنة وقادرة على التكيف مع تطورات المجتمع. لا ينبغي أن تكون جامدة، بل يجب أن تتكيف باستمرار لتلبية الاحتياجات المتغيرة للأفراد والمجتمع.

جزء من فلسفة ريكور في مجال القانون يندرج تحت مظلة علم التفسير (الهيرمينوطيقا) ويهتم بتطبيق القاعدة القانونية على حالات فعلية. في الواقع، يرفض ريكور تطبيق القاعدة بشكل ميكانيكي. تنشأ من هنا العلاقة من الربط بين الشرح والفهم على المستوى المعرفي. في الواقع، يعتبر الفهم تعريضًا للنص من أجل استقبال ذات أوسع. ينتهي كل شرح بفهم، والذي يتم البحث فيه ليس على الكاتب، ولكن ما يُتحدث عنه في النص، الشيء في النص، العالم الذي ينطلق نحوه.

يجب تفسير كل قانون في كل مرة، تمامًا كما يجب تفسير كل حالة في كل مرة ليتم فهمها في تفاصيلها المختلفة، بهدف القول بوضوح: تم انتهاك هذا القانون من خلال هذا الفعل الغير قانوني.

وهذا التأويل الذي قد يُعتَبَر كسر القوانين بحسب عبارة جبران هو الدليل على العدالة، عدالة الحكم. من هنا تنشأ الجدلية بين عالمية القانون، وفردانية القانون أو قدرة التفسير في تفرد السياقات الوضعية. الهدف هو إصدار الحكم لتنفيذ عقوبة تكون عادلة. وهكذا نجد مفهوم الاعتراف القانوني. الهدف من الاعتراف هو مزدوج: الآخر والقاعدة. يتعلق الأمر بالاعتراف بالآخر كشخص حر ومتساوي مع أي شخص آخر، والاعتراف بالقاعدة كصالحة.

أمام التصور الريكوري الذي يريد ربط القانون بالعدل، سيكون من المثير للاهتمام مقارنته مع تصوير الإيجابية القانونية الذي يمكن ربطه بعبارة جبران "*حياتهم صخرة والقانون إزميل*". هذا هو الموقف الذي اتخذه كيلسن في "نظرية القانون الخالصة" التي تعتبر خالصة لأنها لا تهتم بالأنظمة القانونية الفردية، بل تهتم بأساس القانون بشكل عام، وأيضا لأنها ترفض أي أساس أخلاقي للقانون. يؤكد كيلسن على استقلال القانون ويريد تحرير نظرية القانون الإيجابي من أي عنصر غير قانوني، مثل الاعتبارات النفسية، الاجتماعية، السياسية، الأخلاقية والدينية.

في المقام الأول، يعلن كيلسن أن القانون يجب أن يقيم عقوبات وقيود لضمان الأمان الجماعي. هذا النظام القانوني لا يكتسب قيمة إلا من خلال الاستقرار. في هذا السياق، لا يمكن أن يكون مستندًا إلى الأفكار المتعلقة بالأخلاق، لأن كل ما هو جيد أو سيء من الناحية الأخلاقية، أو مبرر أو غير مبرر أخلاقيًا، يتغير مع الوقت، وأيضا وفقًا لمجموعات اجتماعية مختلفة أو ثقافات متنوعة، وبالتالي، لا يمكن العثور على أخلاق مطلقة، أي ذات صلاحية عالمية واستقرار، ولا يمكن أبدًا أن تكون أساسًا للقانون. في الواقع، حتى إذا كانت معايير العدالة يمكن أن تقيم معايير القانون الإيجابي، فإنها لا يمكن أن تشكله، حيث أنها، مثل أي قيمة أخلاقية أخرى، تتغير من مجتمع إلى آخر، وتتناقض، وبالتالي، تحتفظ بطابع أساسي نسبي.

ومع ذلك، إلى أي مدى يمكن تحديد الصحة الموضوعية للالتزامات القانونية بموجب المعيار الأساسي الوحيد لكيلسن؟ أليس لدينا دليل على أن شيئًا ما يظهر، أن هناك حقًا حدث، هناك إبداع في العمل؟ أليست هذه الأشكال المعنوية، التي تؤسس للقانون، نتيجة لإبداع، وليس فقط نوعًا من الاستنتاج المنطقي المولود من بديهة؟ أليس من الخطر استبعاد المفهوم العادل من القانون؟ بفعل ذلك، ألسنا نحرم أنفسنا من أداة تفكير قد تساعد القانوني في مهمته؟

هذا هو الموقف الذي يدافع عنه ريكور، الأخلاق تبرّر صحة القاعدة، حتى وإن كان من الضروري تمرير الأخلاق عبر مصفاة القاعدة للوصول إلى صحة عالمية. يريد القانون أن يقضي على الأفكار غير الملائمة للعدالة، ولكن لا يمكنه القضاء على معنى العدالة نفسه كما هو. البعد

القانوني يندرج تحت بُعد أخلاقي يعود إلى بُعد أنثروبولوجي، ومن هنا تأتي ضرورة الاعتراف بفرد قادر، جدير بالاحترام والتقدير ليبقى الإنسان أساس وهدف القوانين، وهذا ما يدافع عنه جبران.

الشريعة والقانون في الأدب الجبرانيّ

قراءة في علم القانون وحَوْلَهُ

كابي ط. شاهين، *بروفسور في القانون – الحقّ الخاص، أستاذ وباحث جامعي، قاضٍ عدليّ*

***

في الجريمة والعقاب

أقف أمام هذا النصّ قارئًا ومفكّرًا فقارئًا ومفكّرًا أيضًا. وفي وقوفي أمامهُ مهابةٌ وخشوع. أهابُ فيه خصيصًا فكرَتَيْن اثنَتَيْن.

أقرأ أوّلاً:

"ثمّ دَنَا منهُ أحدُ قُضاة المدينة، وقالَ لهُ: "كلّمنَا في الجريمة والعقاب"، أجاب:

ذاتُكم الإلهيّة هي كالبَحرِ، تبقى أيضًا نقيةً من الدَّنَس... ولكنّ ذاتكم الإلهيّة ليسَت وَحدَها في كيانكُم.

جَمٌ فيكُم أَصبَحَ إنسَانًا، لكنّ جَمًّا آخر فيكُم لم يُمْسِ إنسانًا بعد، بل هو مسخٌ مُشَوَّهٌ يمشي غافيًا في الضّباب يبحثُ عن يقظته." (ص. ٥٦ و٥٧)

الفكرة الأولى: المُجرمُ جَمٌ منَّا!

كمالُ الإنسانيّة لدى نبيّ جُبرَان مُرَادِفٌ للذّات الإلهيّة التي لا تعرف الجريمة ولا السُقوط بل هي تُحَلِّقُ في سماوات الطهارة والنّقاء. ما يسقُطُ من الإنسان في مَسيرة الحياة الدُنيا هو شيئُه الآخر أو ذاتُهُ الأخرى. ما يسقُطُ من الإنسَان هو جزءُهُ المُلازم لإنسانيّته، المُرَادِفُ لهَا أيضًا[١]، المتأصّلُ فيها كورقة الشجرة المتجذّرة في عودها أو كقطرة مياه المطر المنحدرة من الغيمة عينها، تلك التي، في فَرَادَتِهَا وتمايُزِهَا ليست سوى الغيمةُ نفسُهَا حين يُنَاديها أسفَلُ فَتَهوِي.

---

[١] وفي كتابه "المجنون" يتحدّث جُبران لا عن ذاتيْن متجاورَتَيْن فحسبُ بل عن ذواتٍ سبع.

لن أتحدّث عن علم النّفس وكيف يُقرَأُ تَزاوُجُ البياض والسواد في كلّ نفسِ بشرٍ، الخيرُ والشرّ. ملاكٌ قابعٌ فوق الكتف اليُمنى وإبليسُ الكتف اليُسرَى الموسوس في الصّدور ولهُ في القرآن سورةٌ[٢]. بل سأتحدّثُ عن ذلك السّاقط في الجبّ، جبّ الجريمة، أيْ الإنسان في القانون.

المُجرم في القانون إنسانٌ كامل. وجريمتُهُ فعلُ مخالفةٍ نابعٍ منهُ. الجريمة إذًا إبنة الإنسان لأنّها تَلِدُ من رفضه لما لا يُحبُّ رؤيتهُ من نفسه وفيهَا.

تجريم القتل نبذٌ للقاتل المختبئ في كلّ واحدٍ منّا، وتجريم السَرِقَةِ شجبٌ للّصّ القابع في عينِنَا النّاظرةِ دومًا إلى ما ليس لنَا.

وبالفعل، تتبدّى وظيفة القانون الجزائيّ على أنّه مُدَوَّنة السلوك الإنسانيّ المنبوذ، المُعَاقب عليه بعقوبةٍ جزائيّة غالبًا ما تكونُ عقوبةً بدنيّة[٣]. C'est un droit répressif. هو القانون الهادف إلى حماية المؤسسات الإجتماعية من سلوكيّات تُعتبر خطيرةً في زمانٍ ومكان[٤]. همُّهُ الأوّل إذًا حمايةُ الأمن الإجتماعيّ ممّا ينبُذُهُ نِظَامُ المُجتمع وأخلاقه[٥] المحدودَيْن في الحاضر والهَاهُنَا.

وماذا عن أمسِ الذي مضى؟ وماذا عن غَدِ الذي نجهلُ معَالِمَهُ؟ كان فرعون يتزوّج من أمّه وأخته وابنته. وكانت قبائل اليهود تزوّج الأرملة لُزُومًا من سلفها، وبعض المذاهب تُبيحُ للزّوج إنزالَ ضُروبِ التأديب بالمرأة. والعائلة التي تحدّثت عنها مقالة Couvrat المذكورة أعلاه كانت تحميها في فرنسا في ستينيّات القرن الماضي جريمة الزنى، وجريمة اللواط. أينَ نحنُ اليومَ من هاتيْن الجريمَتَيْن؟ ومن تأديب المرأة بضربها؟ أم من زواج السفاح (...).

ما أرغب في قوله إنّ هذه المفاهيم الأخلاقيّة ليست سوى أفكار آنيّة تحدُّها الجُغرافيَا ويطْويهَا التّاريخ. في العصور السحيقة مثلاً قالَ سقراط بأنّ الجريمة جَهلُ الإنسان لنفسه، وإله المعبد الدِلفيّ (Delphique) كان يقول: "إعرف نفسك!"، أمّا أفلاطون فجاء بعقيدة أخلاقيّة مغايرة

---

[٢] هي سورة الفَلَق حيثُ يُدعَى الإنسان إلى أن يَستَعيذَ بربّ الفلق من شرّ ما خلق (...). ولهُ في كتاب "المجنون" عينه قصةٌ بعنوان "اللذّة الجديدة".

[٣] م. **العوجي**، *القانون الجنائيّ العام، الجزء الأوّل، النظريّة العامّة للجريمة*، مؤسسة نوفل، بيروت ١٩٨٨، ص ١٨-١٩.

[٤] P. COUVRAT, « Le droit pénal de la famille », *RSC*, 1969, 807.

[٥] م. **العوجي**، *الأمن الإجتماعيّ*، مؤسسة نوفل، بيروت ١٩٨٣.

حيثُ الإنسان لا يسعى سوى للخير بإرادته ولكنّه قد يفعل الشرّ رغمًا عن نفسه السّامية[٦]. وأمّا أرسطو، فلا موقف لديه من الأخلاق، بل هو اعتبر أنّ اللذّة بذاتها لا هي مُدَانة لديه ولا هي مُحَبَّبَةٌ لهُ بل يتعلّق الأمر بالمظهر أو الفعل الخارجيّ الذي تتمظهر به. هيجل، في زمنٍ أقرب منّا ربط الأخلاق بالمسيحيّة حيثُ الإلهُ ليس متسلّطًا (Despote) بل هو محبّة بحيثُ جعل من الإنسان حُرًا في أعماله وعلى مقدار محبّة الله له تَعظُمُ خطيئته في مخالفة وصاياه. وهكذا قال القدّيس توما الأكوينيّ بأنّ لا شرير إلاّ لجهله *Omnis peccans ignorans*. ديكارت في Discours de la méthode قال بأنّه لا يمكن انتظار نهاية الشكّ لنحيا في المجتمع، ويقتضي بالتّالي العيشُ في ظلّ هذا الشكّ، ولهذا فَخَيرُ الأخلاقِ احترام قوانين البلاد ومبادئ الدّين الذي نشأنا فيه من أيّام طفولتنا من غير إسرافٍ excès في شيء! فلاسفة عصر الأنوار أنشدوا حريّة الإنسان وقالوا أنّ الجريمة هي ما يذهب خلافًا لهذه الحريّة[٧].

لكلّ عصرٍ إذًا مدرسته الأخلاقيّة وجرائمه المتسلّقة على سُلَّمِ مفاهيمه.

ولقانون الجزاء أيضًا وظيفته السياسيّة وهي حماية الدولة ونظامها. فنقرأ في الإعلان الصّادر عن مجلس السوفيات الأعلى في ٢٥ كانون الأوّل ١٩٥٨ أنّ الجريمة هي (...) كلّ ما يمسُّ بنظام الدولة (...) أو بالنظام القانونيّ الاشتراكيّ[٨].

ولا تَظُنَّنَّ أنّ الأنظمة الحرّة أو الديموقراطيّة بريئةٌ من هذه القراءة، فالدستور اللبنانيّ وضع الملكيّة الفرديّة في حمى القانون[٩]. وهكذا عَاقَبَ القانون اغتصاب المُلْكِ الخاصّ أو التعدّي عليه في حين قال معمّر القذّافي[١٠] في كتابه الأخضر أنّ المنزل لشاغله والحقل لزارعه. والباب الثّالث من قانون العقوبات اللبنانيّ مخصّص للجرائم الواقعة على الإدارة العامّة وفصلهُ الثّاني مخصّص لما يقعُ على السلطة العامّة تحديدًا.

---

[٦] يذكّرنا ببولس الرسول: "الخير الذي أريده لا أعمله والشرّ الذي لا أريده فإيّاه أعمل"، الرسالة إلى أهل رومية ٧: ١٩.

[٧] H. GRENIER, *Les grandes doctrines morales, préface d'Olivier Pourriol*, PUF, 3ème éd., 2019.

[٨] J. BELLON, « Les nouveaux textes fédéraux de droit pénal et de procédure pénale en Union Soviétique », *RSC*, 1959, 113.

[٩] B. MENASSA, *Dictionnaire de la Constitution libanaise*, éd. Dar An-Nahar, 2010, p. 41 à 58.

[١٠] معمّر محمد عبد السلام القذّافي، تولّى السلطة بعد ثورة الفاتح من أيلول ١٩٦٩ وأنشأ "جماهيريّة" استمرّت حتّى العام ٢٠١١ حين اغتالته قواتٌ مجهولة الانتماء والجنسيّة استفادت من حالة الانتفاضة الشعبيّة والقلاقل لتصفيَتِهِ.

وتعلمون حقّ العلم أنّ الأنظمة تتبدّل. هنري الرّابع عشر قال أنّه هو فرنسا، واليوم فرنسا هي الجمهوريّة. لبنان الأمس كانَ ذاك الجبل المهيب الأبيض ولبنانُ اليوم جمهوريّةٌ اغتصب استقلالها تشرشل في حربه الشرسة مع صديقه اللدود ديغول.

بالطبع، سيقول السّامعون أنّني أُغالي في نقدِيْ للنظاميْن الإجتماعي والأخلاقيّ وهما مبنى القانون الجزائيّ، وأنّ هنالك عددًا من الجرائم هي تُعتبر كذلك تحتَ كلّ سماءٍ وفي كلّ زمان. وهذا أمر صحيح. هنالك الحقّ الطبيعي.

Blandine Barret-Kriegel تقول أنّه لا بدّ من إعادة رسم فلسفةٍ جديدة في الحقّ الطبيعي[١١] الذي ينبع من مشاعر الإنسان الهادئ في حضن الطبيعة apaisé à l'état de nature وهذا ما يُعيدُني إلى النصّ الجبرانيّ الذي يقول أنّ الجريمة تقع "حين تتيه رُوحُكم في الرّيح..." أيْ حينَ يخرج الإنسانُ عن إنسانيّته الأولى à l'état de nature.

- **<u>وأقرأ أيضًا في النصّ الجبراني:</u>**

"ثمّ دَنَا منهُ أحدُ قُضاة المدينة، وقالَ لهُ: "كلّمنَا في الجريمة والعقاب"، أجاب:

وأنتُم، يا الرّاغبونَ في فهم العَدَالة، كيفَ تفهمونَهَا إنْ لَمْ تُعَاينوا جميعَ الأفعَالِ في وضح النّور؟"

الفكرة الثّانية: نسبيّة العَدَالة أو نسبيّة "حقيقة القانون" إزاء "الحقيقة التي في الحقّ".

وهل يُعاينُ القانون حقيقة الأفعال في وضح النّور؟ أمْ أنّ لهُ حقيقَتُهُ الخاصّة. حقيقةُ الملفّ وعناصره الثّابتة بوسائل الإثبات المُتَاحة والجائزة والتي يفهمها القاضي ببشريّته وأوهانه ومحدوديّة افكاره؟

ديموستينُس الأثِيني قال في عصور ما قبل الميلاد أنّ المجتمع السياسيّ لا يمكن أن يقوم سوى على الحقيقة والعدالة. وقع المفكّر الأثيني في فخّ الكلمات القاتل: عدالة وحقيقة!

العدالة مزدوجة الأضلع، هي سُلطَة وهي أيضًا فضيلة.

---

[١١] B. BARRET-KRIEGEL, *Les droits de l'Homme et le droit naturel*, Quadrige/puf, 1989.

في خيال الشعب اللاواعي Inconscient collectif، العدالة شيخٌ طاعنٌ في السنّ يلبس هندامًا متسربلاً أبيض وله لحيةٌ تنير وجهه الغضّ![١٢]

وهذا الخيال الشعبيّ اللاواعي يرى العدالة على أنّها سلطةٌ لا تُخطئ! ونحنُ نعلم أنّها تُخطئ، وقد رسم القانون أصولاً لفسخ الأحكام أو حتّى إبطالها والطّعن بها وصولاً إلى مقاضاة الدّولة عن أعمال القضاة العدليين[١٣] . العدالة– السلطة نظامٌ بشريّ حيثُ يزرع البشر حسناتهم القليلة وسيّئاتهم الكثيرة. هي صنوُ الإنسان المحدود في أعماله اللامحدود في أفكاره وأُمنياته. فَلَهَا إذًا ما لهُ من العيوب défauts.

أمّا العدالة كفضيلة فهِيَ لا تُخطئ. هي التي يصعب تعريفها بذاتها أو تحديد مضامينها، ولكنّنا نشعر بها حين ننظر اللاعدالة. نثور حين نشعر باللّاعدل يلاحقنا. والثورة تجاه الظلم تسبق الشعور بالعدل. العدل يأتي لاحقًا، هو يُعَرَّف على أنّه غياب الشعور باللاعدل. الظلم إذًا هو الخطوة الأولى تجاه العدل لأنّه يمكنّنا من إدراك العدالة كفضيلة[١٤]. وفي حضور العدالة الفضيلة لا محلّ للعدالة–السلطة. نعم! لا حاجة لقاضٍ شابٍ أو عجوز، أو لمحامٍ مترافعٍ لو كانت فضيلة العدالة منتشرة. كونفوشيوس قالها بذاته: *" أن أسمع المترافعين وأقضي بينهم، فأنا قادرٌ على ذلك، ولكنّ الأصعب هو ألاّ يكون ثمّة مترافعونَ بعد[١٥]"*.

والحقيقة القضائيّة أو حقيقة القانون هي ليسَت بحقيقةٍ مُنزلة ولا بحقيقةٍ مُطلقة أو حقيقة الحقّ[١٦]. في طَفْوِ الحقيقة القضائيّة على مياه الملفّ المتحرّكة دورٌ لأنصاف الحقائق التي يأتي بها المتقاضون[١٧]، ولأنصاف الحقائق التي قد يُدرِكها القاضي بالدّليل القانونيّ وبما تجنحُ به نفسه

---

[١٢] يذكّرني بكهنة ديانات تأليه الطبيعة في شمال أوروبا Les druides. وكلّما مرّ في مكتبي متقاضٍ قال لي: اعتقدتك أكبر سنًا، أنتَ قاضٍ شاب! كنتُ أظنّ أنّ القضاة جميعهم عجائزُ بطيئو الحركة كثيرو التفكّر!

[١٣] ح. **الحجّار**، *الوسيط في أصول المحاكمات المدنيّة*، ط ٤، ١٩٩٨، ج ٢، ص ٤٤٧ وما يليها، رقم ٩٦٩ وما يليه.

[١٤] LEBOVICI, « C'est pas juste », *in La Justice, l'obligation impossible* (dir. par W. Baranès et M.-A. Frison-Roche), éd. Autrement, Essais, p. 12 et s.

[١٥] H. ÉVARISTE-REGIS, *Souvenirs d'un voyage dans la Tartarie et le Thibet*, éd. Gaume frères, Paris, 1854, T. 2.

[١٦] هل نقول الحقّ حين نشهد أمام القاضي أنّ جارنا في الطابق السادس سبّ رئيس بلادٍ صديقة؟ أميركا مثلاً! (وهذا جرمٌ جزائيّ) أو أنّه يهوى من هم من أبناء جنسه (وهذا جرمٌ جزائيٌ في لبنان أيضًا).

[١٧] F. ZENATI, « Le citoyen Plaideur », *in La Justice, l'obligation impossible*, (dir. par W. Baranès et M.-A. Frison-Roche), éd. Autrement, Essais, p. 190 et s.

إلى تكوينِ القناعة الحميميّة conviction intime. هذه القناعة إذًا قد تكون بنت أفكاره أو تخيّلاته أو جنوحه Fantasmes أو ثمرة أصول المحاكمات وشكليّاتها[١٨]. أفكّر بقضية Dutroux[١٩] وبغيرها في أرقى أنظمة القضاء.

سَأُوجِزُ وأقول أنّ حقيقة الملفّ أو القانون عمارةٌ بشريّة أعجزُ من أنْ تقول الحقيقة التي في الحقّ، تلك التي تعانق وجه الشمس وتغفو على أجنحة آلهة السماوات، أو كما قال جُبران: حقيقة الأفعال التي في وضح النّور!

*****

في القانون

ثمّ سألَ مُحامٍ:"ماذا عن قوانيننا يا معلّم؟" فأجاب:

(...)

يمكنُكم أن تكُمُّوا الطبلةَ، وتُرخوا أوتار القيثارة، ولكن... من يمكنُهُ أنْ يَمنَعَ القُبَّرَةَ من الغِنَاء؟"

التقنين أمرٌ محدودٌ بذاتيّته:

القانون أو الحقّ Le droit هو في ذاتيّته علاقةٌ تعبّر عن القوّة Rapport de force ولا يُمكن أن يُمَارَس خارج ممارسة هذه القوّة أو هذا العنف[٢٠]. هذه الفكرة الكِلْسنيّة Kelesenienne [21] نراهَا أيضًا لدى فون هيرنغ Von Jhering الذي يقول إنّهُ بالقاضي أو بالأحرى بالسُّلطة التي

---

[١٨] M.-A. FRISON-ROCHE, « 2+1=La procédure », *in La Justice, l'obligation impossible* (dir. par W. Baranès et M.-A. Frison-Roche), éd. Autrement, Essais, p. 214 et s.

[١٩] L'affaire Dutroux est une affaire criminelle en Belgique en 1996 qui a révélé des dysfonctionnements graves de la Justice et des rivalités policières insensées. Cette affaire de pédocriminalité a eu un retentissement mondial et est souvent citée comme exemple d'une justice humaine faillible.

[٢٠] Violence ou sanction. Voir, D. DE BECHILLON, *Qu'est-ce qu'une règle de droit ?*, Odile Jacob, 1997.

[21] . H. KELSEN, *Théorie pure du droit*, LDDJ, 2ème éd., Paris, 1962, p. 56

يُمَارِسُهَا هذا الأخير autorité تتكشّف الحقيقة المُطلقة للقانون على أنّه قوّةٌ جبريّة أو سلطةُ عنفٍ[٢٢].

في القراءة الوضعيّة السائدة اليوم positiviste للقانون التي تبتعد عن المفاهيم الطبيعيّة Jusnaturalistes يقوم القانون على قاعدةٍ أوّليّة Prescription primaire هي الأمر أو النّهي le commandement وعلى القوّة الضّامنة أو العنف الحاسم La violence كنقطةِ تمحورٍ مركزيّة. وهكذا، قال كثيرون بأنّ الحقّ استبدالٌ للقوّة وأنّ القوّة ضمانةٌ للحق.

وكَثُرَت تفاسير الحقّ أو منطوق القاعدة الأوّلية Prescription primaire منذ الأقدمين. فأرسطو وجد في الحقّ مسألة إنصاف مُصَحِّح[٢٣] équité correctrice وإيبيكور[٢٤] فسّرَهُ على أنّه مبنيٌ على النفع والخير Utilité، وشيشرون[٢٥] قال بالحقّ الطبيعي كنتيجةٍ للتفكير القويم Droite raison. أمّا توما الأكويني[٢٦] في Somme Théologique فرأى فيه خيرَ الله Toutes choses sont examinées du point de vue de Dieu وباسكال[٢٧] قال بالسلطة، لا الحقيقة كمبنى للحقّ. هذا الحقّ الذي رأى فيه هوبس[٢٨] إرادة السيّد le souverain وهوريو[٢٩] قال بالحقّ كوليدٍ للمؤسسات l'institution ou la mère de la loi. وكَانْتْ[٣٠] Kant خرج من رحاب الحقّ الطبيعي ليمهّد للحق الوضعي الذي هو التعبير عن إرادة الطبقة البورجوازيّة في التخلّص من أخلاقيات النظام القديم ancien régime. هيجل[٣١] Hegel تجاوز الوضعيّة أو أنّه أنارها بنورٍ جديد فقال أنّ القانون وضعيّ بشكله formellement positif وهو وضعي بموضوعه matériellement positif بمعنى أنّه يحتوي حتمًا على اعتباطيةٍ ما une part d'arbitraire ou de contingence في انتقاء القواعد وتنسيقها. وننتهي بكاري دو مالبيرغ[٣٢] الذي نَحَى مَنحىً

---

[٢٢] R. VON JHERING, *L'évolution en droit*, trad. Z. IN RECHT, O. De Meulenaere, 5e éd., Paris, 1901, p. 206-213.

[٢٣] Voir le dialogue de Créon et d'Antigone dans *Sophocle, Aristote, Éthique à Nicomaque*, trad. T. JULES, Vrin, 3ème éd., 1972.

[٢٤] Voir GOLDSCHMIDT, *La doctrine d'Épicure et le droit*, Vrin, 1977.

[٢٥] Cicéron, *Des lois, Livre I, De la République,* version française, GF Flammarion, 1965.

[٢٦] T. D'Aquin, *Somme Théologique*, IIa, IIIae, 1932.

[٢٧] PASCAL, *Pensées in Œuvres*, Gallimard, 1941.

[٢٨] HOBBES, *Le Citoyen ou les fondements de la Politique*, GF Flammarion 1982.

[٢٩] HAURIOU, *Précis de droit administratif*, Sirey, 6ème éd., 1907.

[٣٠] KANT, *Introduction à la doctrine du Droit*, GF Flammarion, 1982 ; et *Introduction à la métaphysique des mœurs*, Gf Flammarion, 1994, t. 1.

[٣١] HEGEL, *Principes de la philosophie du droit*, GF Flammarion, 1999.

[٣٢] C. DE MALBERG, *Contribution à la théorie générale de l'Etat*, Sirey, 1920.

مميزًا حيثُ غَلَّبَ تقنيّات القانون Technique juridique منتهيًا إلى بناء فكرٍ قانونيٍ مكتفٍ بذاته juridisme pur حيثُ تُعَرَّى القاعدة من كلّ عناصرها غير القانونيّة.

الحق استبدالٌ للقوّة لأنّ قصاص القانون أتى ليستبدل عنف الانتقام الفرديّ باعتبار أنّ الانتقام يؤدّي إلى تفكّك المجتمع والسقوط مجددًا في حالة الحرب الهمجيّة الشاملة. هذه هي بالحقيقة الفكرة الشائعة لدى الكثيرين منذ أيّام هوبس Hobbes. والقانون لدى باسكال Pascal هو حجّة القويّ La raison du plus fort.

نستعرض كلّ هذه الأفكار لنقول أمرًا هو بغاية البساطة ولكنّه كثيرُ البلاغة. القانون لا يعرف سوى البشريّ، الإنسان، الآدميّ. في قراءته للأشياء هو لا يدركها إلاّ إذا كانت محلّ رابطةٍ قانونيةٍ مع الإنسان[٣٣].

القانون كنظام عنف مقنّن لا يتعلّق سوى بالإنسان لأنّ العنف الذي يتّخذه وسيلةً لا يُمَارَسُ إلاّ على الإنسان وعلى ما يتعلّق بهذا الأخير من أشياءٍ وأموالٍ.

وهكذا تُغَنِّي القُبّرَة كما تشاء غيرَ آبهةٍ بقانون أو مُشترع!

ألا أعانَ الله الإنسان على القانون وأهله. وأعوُدُ إلى "مَجنُون" جُبرَان لا إلى "نَبِيّه" العالم.

فهَل عَسَى أنْ نَكُونَ كُلُّنَا مَجَانِين؟

---

[٣٣] القانون يُهمِل الأشياء التي لا تربطها بالإنسان رابطة قانونيّة، هذه حال ملح البحر أو مياهه! وهي تُصَنَّف على أنّها *Res nullius* وكذلك الأمر في ما يتعلّق بالحيوان. حتّى الآدمي الميت، أو الجثّة dépouille mortelle فلها في القانون وضعيّة خاصّةٌ بها (statut juridique propre) وهي لا توازي الجسم الحيّ للإنسان.

الجريمة، والعقاب، والقانون في فكر جبران

من العدالة الصارمة إلى إحقاق الحق والإنصاف، ثمرة التعاطف

د. فادي رحمة، *رئيس لجنة جبران الوطنيّة*

بسرورٍ واهتمام كبيرين، رحبّت لجنة جبران الوطنية بقرار كليّة الحقوق والعلوم السياسية في جامعة الروح القدس – الكسليك بتنظيم جلسةٍ حوارية لتبادل الأفكار حول موضوع *"الجريمة، والعقاب، والقانون"* في *"النبيّ"* للمفكّر الكبير جبران خليل جبران. كما في العديد من المسائل الأساسية التي تستوقفنا في حياتنا، يدعونا *"المصطفى"* ، نبيّ جزيرة أورفاليس الذي يخاطبنا جبران من خلاله ويشاركنا أفكاره، إلى إعادة النظر في مقارباتنا وفي الكثير من الأحيان إلى السّير عكس تيّار الفكر الكلاسيكي المحيط بنا.

في هذا السِّياق بدا لنا أنّ إقامة حلقة حوارية حول هذه المواضيع - تمزج بين أفكار رجال قانون وقضاة وفلاسفة وعلماء إجتماع وعلماء نفس ومؤرخين - هو عملٍ ذو أهميةٍ كبيرةٍ يسرَّنا المساهمة فيه، إذ أنّه يقدّم إلى الطلّاب والباحثين مقاربةً متعددة الاختصاصات وضروريةَ لتحليل هذه العناصر الثلاثة عنينا *"الجريمة، والعقاب، والقانون"*. أليست هذه مواضيع يجب دراستها بنواحيها المختلفة، أو كما يقول جبران: *" في تمام النور"* ؟

يكرّس جبران في عمله فصلين لهذا الموضوع. يتمحور أوَّلهما حول "الجريمة والعقاب" ويطرح ثانيهما أسئلةً حول "القانون" وعلاقتنا به. في الأول، تطفو على الفور مسألة دقّة مقاربتنا للعمل الجرمي وعقابه. فغالباً ما تكون سريعةً ومزدوجةً، أو حتّى مانويّةً، تعتبر كلّ فعل عدالةٍ كعقاب مذنبٍ مسؤولٍ عن كلّ شيء إرتكب فعلاً ينتهك القانون وكتعويضٍ (معنويٍ ومادي) لضحيّةٍ بريئةٍ تماماً. في نظر جبران ليس من الممكن دائماً فصل الإثنين، ولا سيما عندما يكتب: " *بلى كثيرًا ما يكون المذنب ضحية المذنب إليه*". قد يبدو من المفاجئ أن يرد ذلك على لسان مفكّرٍ يدعو إلى الإنصاف واحترام الآخر. ولكن تجدر الإشارة إلى أنّه يستعمل مصطلح *"كثيراً"* وليس *"دائماً"*، ويدعونا إلى عدم النأي بأنفسنا عن الذي يرتكب الجريمة، فهو واحدٌ منّا وهناك في كلّ منّا، جزءٌ قد يُخطأ يوماً، ويتابع: "*ومتى وقع أحدكم فإنما يقع عن الذين وراءه نذيرًا بوجود حجر عثرة*".

من أين تنبع هذه الحاجة إلى "فهم" المذنب وتفسير أنّه قد يكون أيّ شخصٍ بيننا؟، هنا ربّما يجب إلقاء نظرةٍ على الحياة الشخصيّة لجبران، الذي رأى، خلال طفولته، والده محكوماً عليه بتهمة الاختلاس من قِبلِ الجباة الأقوياء للضرائب التي كان هو مسؤولاً بنفسِه عن الاستحصال عليها من المزارعين. هل كان جبران الأب مذنباً ؟ بالنسبة لبعض الباحثين، وقع الرجل ضحيّة ظلمٍ، حتّى ولو أشارت القصّة الرسميّة إلى أنّ الأمر لم يكن كذلك. على أيّ حال، في نظر جبران الصغير (البالغ من العمر ٨ سنوات عند وقوع الحادثة)، كان في ذلك ظلمٌ سيقلب رأساً على عقب حياته وحياة عائلته التي أرغمت بعد ذلك على الهجرة. ولا بدّ من القول إنّه في جبل لبنان، في السنوات التي عاش خلالها جبران، كانت العدالة بين أيدي أقوياء، وغالباً ما كانت تُمارس بطريقةٍ تعسّفيةٍ، لصالح سلطةٍ إداريةٍ أو إقطاعيةٍ غير منصفة أحياناً. هذه هي السلطة التي يتكلّم عنها عندما يقول: *"القتيل ليس غير محاسبٍ عن جريمة قتله، ولا المسروق غير ملامٍ عن كونه سُرِقَ.. وإن كان لأحدكم أن يعاقب بإسم الصلاح، فليضع الفأس على شجرة فاسدة فلينظر في جذورها، إذاً لوجد الصالح والطالح والمثمر وغير المثمر من جذورها متشابكًا معًا في سكينة قلب الأرض"* .

ثمَّ، وبشكلٍ أكثر تحديداً، مستخدماً صوت *"المصطفى"* ، تراهُ يتوجّه إلى القضاة وهو يشكّك في صحّة العقاب الذي يفرضونه: *"أي حكم تصدرونه على من كان صادقًا في الجسد لكنّه سارقًا في الروح أيّ عقاب تنزلونه بالذي يقتل في الجسد بينما هو نفسه قتيلٌ في الروح؟* ".

سؤالٌ كبيرٌ يستوقفنا ويدعونا إلى التفكير بقدرتنا على تحقيق العدل والرحمة والتعاطف في آن معاً في أحكامنا. القاضي كفيل بتطبيق القانون. هو ليس واضِعَه. ومن واجبه إحلال العدل وبالتالي تطبيق النصّ القانوني. عليه أن يكون *"أعمى"* ، أي ألّا يكون لديه أحكامٌ مسبقةٌ تجاه أيّ من المتقاضين... ومع ذلك، يبقى كائناً يتمتّع بالفطنة، وبالأخص، بحسّ الإنصاف. على هذا المستوى، يدعو جبران إلى نظرةٍ دقيقةٍ بما فيه الكفاية إلى الجريمة والعقاب، لكي يسمح لنا وضعها في سياقها، ليس بضمان العدل وحسب، بل بشكلٍ خاصٍ، بضمان إنصاف القرار المتّخذ.

وفيما بعد، يقول على لسان *"المصطفى"* : *"وكيف تعاقبون الذين ندمهم أشدّ من سوء أفعالهم؟ أما الندم فهو القصاص العادل الذي يقضي به القانون هذا الذي ترغبون في خدمته"*. مثيرٌ هو *"المصطفى"* ... كما في كلّ مقاربةٍ لجبران تسير بنا عكس التيار. هكذا، نريد أن يُطبّق القانون لكي يبقى النظام الذي يضمن أمننا قائماً. ولكن، هل هذه هي دعوتنا البشرية الوحيدة؟ بالنسبة لجبران، نتمتّع بهذه القدرة على فهم العالم المحيط بنا من أجل إضفاء الدقّة عليه، الدقّة التي تسمح بالانتقال من العدل، كتطبيقٍ صارمٍ للنصوص، إلى الإنصاف والتعاطف اللذان يسمحان بجعل كلّ قضيّة يتمّ

النظر فيها حالة فريدة من نوعها، مع الأخذ بالاعتبار وضع الجريمة وسياقها قبل تحديد العقاب العادل والأنسب لها.

إنّ هذه المقاربة موجودةٌ لدى عددٍ كبيرٍ من القضاة. لكن لم يكن الحال دائماً كذلك في السنوات التي عاش خلالها جبران وحتى يومنا هذا ليس هناك من إجماع على ذلك. ولكنَّ الذين يعترضون على هذه المقاربة يعتبرون أنّ محاولة فهم الدوافع غير الواقعية أو المادية للفعل الجرميّ تعني البدء بإيجاد أعذار لمرتكبه عن قصدٍ أو غير قصدٍ. في نظرهم قد يؤدي ذلك إلى وضع الجاني على قدم المساواة مع الضحية. ليست هذه المقاربة صحيحةً دائماً. يمكننا أن نفهم وألّا نعذر، ناهيك عن أن نبرّئ. لكنّ من واجبنا أن نفهم لنكون منصفين، والجزء الأساسي من هذا الإنصاف سيكون أيضاً العقاب العادل.

إذا قيل مع جان جاك روسّو إنّ الإنسان طيبٌ بفطرته، وما فساده إلا وليد المجتمع، يصبح بالتالي من الضروريّ أن يفهم هذا المجتمع الأسباب التي تدفع بعض أفراده إلى اللجوء إلى الجريمة التي تستدعي العقاب. يهدف هذا الأخير، أي العقاب، إلى حماية المجموعة الاجتماعية، ولكن يجب أيضاً، عندما يكون ذلك ممكناً، والحال ليس دائماً كذلك، أن يسمح العقاب باستعادة الفرد الذي ارتكب خطأً إلى المجتمع. أما للعقاب هدف إصلاحي؟ إنّه لمطلب كبير ولكن، هذا هو المصطفى... يطلب منّا أن نتجاوز ظروفنا الضيّقة عندما يتعيّن علينا أن نبتّ في جريمة. وهو يلخّص مقاربته هذه مختتماً: "*أنتم يا من يتمنون أن يفهموا العدل، كيف لكم ذلك ما لم تنظروا إلى جميع الأفعال في تمام النور؟ عندئذ فقط تعرفون أن الناهضين والساقطين هم شخص واحد يقف في الأصيل بين ليل ذاته المسخ ونهار ذاته الإله*".

يرى البعض في هذه القراءة التي تدعو إلى الإنصاف، ثمرة التعاطف، أثر المقاربة المسيحية للغفران وقبول التوبة بعد الخطيئة، وهذه نجدها في أعمال جبران بأكملها، ولا سيّما "*يسوع، ابن الانسان*". بعيداً عن ندائه الذي يطلب منّا فيه أن نكون عادلين، نرى أيضاً في ذلك دعوةً إلى أن نكون صالحين ومتعاطفين، حتَّى في بعض الحالات، مع معاناة من يبدو لنا مجرماً. وهكذا، نتخيّله وهو يقول لنا بشكلٍ آخر: "*من منّا من دون خطايا ليحقّ له أن يحكم على الآخرين من دون الأخذ بالاعتبار بالوقائع والأوضاع التي دفعتهم إلى ارتكاب جريمةٍ؟ من منّا لم يجد نفسه في لحظةٍ ما في حالة ضعفٍ، فيما يتعايش فينا ما يسمّيه بـ"الذات النورانيّة" والذات الممسوخة؟ كيف يمكننا أن نكون فقط في العدالة الصارمة، وأن نهمل تطلّعاً إلى تواجدنا في الانصاف والتعاطف؟ إنّه لسؤال كبير للغاية، وكما في الكتاب بأكمله، يخبرنا "النبيّ" عن حالات تموضع، قد لا تقنعنا تماماً، ولكنّها تدعونا إلى التفكير بها وإعادة النظر ببعض الأفكار التي تبدو لنا بديهيّةً.*"

في الفصل التالي، يكلّمنا *"المصطفى"* عن القانون، ويستوقفنا أكثر إذ يتساءل عن استخدام أصحاب السلطة بصفتهم مشرّعين سلطتهم بشكل تعسفي كاتبًا "*أنتم تفرحون في سنّ القوانين ولكنكم تفرحون أكثر في عصيانها* ". هنا تُراهُ يعترض على القانون إن استخدمه البعض لقمع آخرين أو لإسكات تطلعاتهم. للمشرّعين سلطةٌ كبيرةٌ عندما يضعون القوانين وقد يقوم بعضهم بسنها بطريقة تسمح لهم بتجاوزها عند تطبيقها مما يمنع إحقاق الحق، ولكنّ، يقول *"المصطفى"* : شمس العدل ستعود وتشرق دائماً لفكّ رباط القانون غير العادل.

أيّ خاتمةٍ لهذا الفصل أجمل من هذا *"النبيّ"* الذي يعلن لشعب أورفاليس، *"يا أهل أورفاليس أنتم تقدرون على خلق صوت الدفش وحلّ أوتار الغيتارة لكن من له أن يأمر القبّرة بأن لا تغني؟* ".

١٠٠ عامٍ مضت على هذا النصّ، فتجدر الإشارة إلى أنّ عالم العدالة قد تطوّر بشكلٍ كبيرٍ في بعض البلدان منذ ذاك الوقت متّجهاً نحو الانصاف الذي يسمح بفرض عقابٍ ملائمٍ وتحقيق العدالة في الوقت نفسه. يجب أن يعوّض عقاب أيّ جريمة معنوياً ومادياً على الضحية عبر إدانة الفعل الجرمي، ولكن يجب أن يحاول أيضاً استعادة روح الذي ارتكبه.

على صعيد القانون، أحرزت السلطات التشريعية في البلدان الديمقراطية تقدماً بارزاً منذ السنوات التي عاش خلالها جبران، فنظّمت مجتمعاتها أيضًا لتصبح دول قانونٍ يُطبّق فيها القانون مبدئياً، بشكلٍ منصفٍ على الجميع. لقد وُجدت هذه القوانين لتُطبّق ويجب ألّا تُستخدم لتعزيز سلطة الأقوياء على حساب مواطنين آخرين. ولكن، لا يزال هناك الكثير ممّا يتعيّن فعله في عددٍ من البلدان، ومنها بلدنا، لضمان استقلالية القضاء، وتحديث السجون، وإعادة النظر في العقاب ضمن سياقه التربوي والقائم على موجب إعادة الادماج المجتمعي السليم، وأخيراً وضع قوانين تتيح الحماية العادلة للجميع. نحن في وضعٍ أفضل، ولكننا لا نزال بعيدين عن وضعٍ يسمح لنا بالقول إنّ العدالة المطبّقة منصفةٌ في كلّ مكانٍ.

لا نزال بعيدين عن عدالة تُصلح الأضرار وتعيد إدماج الخراف الضالّة مجتمعيًّا... ولكن، ربّما علينا مع جبران، أن نواصل التفكير بأفضل سبلٍ للانتقال من العدالة الصارمة فقط إلى عدالة تؤمن إحقاق الحق والانصاف، ثمرة التعاطف، لضمان الخير العام في ملء بعدنا الإنساني.

شكراً لـ*"النبي"* على تذكيرنا بذلك وحثنا جميعاً على البقاء في حالة تيقّظ.

شكراً لجبران على بقائه معاصراً للغاية بعد ١٠٠ عامٍ.

ملاحظة: جميع الاقتباسات بالخط المائل مأخوذة عن النسخة العربية من كتاب "النبيّ". هذه الترجمة هي ترجمة الشاعر يوسف الخال ومن منشورات دار النَّهار.